بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
بيروت 1443هـ ـ 2022م

روح الدعاء

جعفر محمد حسين فضل الله

المركز الإسلامي الثقافي

المقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمّد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وجميع الأنبياء والمرسلين.

وبعدُ.

فهذه مجموعة من المحاضرات التي تضمّنها البرنامج الرمضاني، بدعوة من الإخوة في الجماعة الإسلاميّة في ديربورن ـ أميركا، وذلك عبر الوسائط الرقميّة، والتي كانت إحدى إيجابيّات جائحة كورونا، بحيث قرّبت مسافات الجغرافيا، وأصبح الحضور الرقمي أحد الخيارات المقبولة اجتماعيًّا في وسائل العمل الدعوي الإسلامي.

وقد كانت هذه المحاضرات تُبثُّ مباشرة عبر اليوتيوب، ما تسنّى متابعتها من غير ناحية من نواحي الأرض، بحمد الله وفضله.

وفي الواقع لم أكن بصدد نشر هذه المحاضرات ورقيًّا، لولا أنّ أخًا عزيزًا ـ مع عائلته ـ أحسنَ الظنَّ بي، ورآها تستحقُّ

النشر، فأرسلها إليَّ منقولةً من المسموع إلى المقروء، وفرَضَ عليَّ تحريرها لتصلُح مادّةً قرائيّة، ومن ثمّ طباعتها على شكل كتيّب صغير لكلّ محاضرةٍ.

وقد رأيتُ وأنا أراجعها أنّ بعضها يشترك في موضوع واحد أو مواضيع متجانسة، فضمّنتُ كلّ كتيّبٍ محاضرات عدّة، وهذا أوّلها.

ولعلّه لا يخفى على القارئ الكريم، أنّ ذلك قد يفرض بعض التكرار، وقد حرصتُ على أن يكون قليلًا جدًّا، ولا يخلو من فائدة.

أسأل الله أن يعصمني من الزلل، وأن يُصلح نيّتي لتكون خالصةً لوجهه الكريم، وأن يجزي من كان سببًا في هذا النّشر خير جزاء المحسنين، وأن يرزقنا جميعًا حُسن العاقبة.

جعفر محمد حسين فضل الله

بيروت ٢ شعبان ١٤٤٣هـ

٥ ـ آذار ٢٠٢٢ م

***

لهذه الأسباب الستة جعل الدعاء[1]

الموضوع الذي نتناوله هنا مرتبطٌ بالعلاقة مع الله سبحانه وتعالى. وهذه العلاقة لها بُعدان أو نمطان:

النمط الأوّل مرتبطٌ بالعبادات، والتي عادةً ما تكون محدّدةً من قبل الشريعة. فالصَّلاة مثلًا حدّدت الشريعة لنا عددها وكيفيّتها وشروطها وأجزاءها وما إلى ذلك، وقد تعبّدنا الله بها، بمعنى أنّه لا يمكن لأحدنا أن يزيد عليها ولا أن ينقص منها، أو أن «نطوّر»[2] من هيئتها وكيفيّتها، أو أن نغيّر فيها تحت أيّ اعتبارٍ من الاعتبارات.

وأمّا **النمط الثاني**، فهو غير مرتبطٍ بشكلٍ ولا قواعد أو بتفصيلاتٍ مجعولةٍ من قبل الشريعة، وكأنّ الله تعالى أراد لهذا النمط من العبادة أن يكون حرًّا، بحيث يقومُ الإنسان بالتعبير عن هذا النمط العبادي كما يشاء، بالأسلوب والمضمون الذي يُشعره بأنّه متأثّر ومنجذبٌ ويقومُ بعمليّة ارتقاء روحيّ. ومن هذا النمط الدّعاء، وله موقع أساسيّ في

---

(١) محاضرة ألقيت بتاريخ ٣ أيار/ مايو ٢٠٢٠

(٢) وضعنا الكلمة بين مزدوجين لأنّنا بدأنا نسمع مَن يطرح فكرة تطوير الصَّلاة لتنسجم مع العصر، وكأنّ الصَّلاة المرسومة أصبحت غير مناسبةٍ لوضعيّة الإنسان المعاصر وحاجاته! وهذا برأينا جهلٌ بالآفاق التي تشتمل عليها الصلاة، وتقزيمٌ لأبعادها...

حياتنا الإيمانيّة، ولجعله بهذه الطريقة أسباب عدّة سنحاول اختصار الكلام حولها وفق النقاط الآتية:

أوّلًا: لماذا يجب أن ندعو؟

هناك اعتبارات عدّة تفرض علينا أن نلتزم الدّعاء كجزءٍ من العبادة التي نقومُ بها، واللّافت أن الله تعالى هو الذي سمّى الدعاء عبادة، كما أشارت الآية القرآنية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

أمّا هذه الاعتبارات فيمكن لنا أن نوجزها كالآتي:

١ـ العبودية

الدّعاء يمثّل وسيلةً من وسائل التعبير عن العبوديّة لله تعالى، تمامًا كما يتمّ ذلك التعبير من خلال الصّلاة والصيام وسائر العبادات المرسومة، لأنّ الإنسان عندما يلجأ إلى الله فإنّما يطلب منه من موقع أنّه فقيرٌ ومحتاج إليه، ربّما يحتاج إلى مأكلٍ أو ملبسٍ أو مسكنٍ أو بعض الحاجات الدنيوية كالزواج والولد والتوفيق في عمله، وإصلاح بعض أوضاعه وعلاقاته، وكذلك الحاجات الأخرويّة المرتبطة بالمنزلة عند الله، والقرب منه، وبالجنة التي يريد الإنسان أن تكون خاتمة مسيرته ومصيره الأبدي، وأن يبعده الله عن الشرور والنار

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

والعذاب، وأن لا يبعده عنه ـ وهو أشدّ من عذاب النار ـ، وما إلى ذلك.

وليس البُعد العبادي للدّعاء مرتبطًا فقط بالحاجة وطلبها، بل إنّ مجرّد الحديث مع الله عزّ وجلّ يمثّل عبادةً، ينطلق الإنسانُ فيها من موقعه الأسفل والدّونيّ إلى الله المتعال، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة السابقة، في ربطها بين عنوان الدعاء وعنوان العبادة.

أيضًا يمكن لنا أن نستوحي من الآية المباركة أن الإنسان الذي لا يجد حاجة إلى الدُّعاء يعيش نوعًا من التكبّر والاستخفاف بالله، وهذا في حدّ ذاته أمرٌ لا يصلُح للإنسان، وهو السبب الذي أخرج الإنسان من الجنّة عندما جعل إرادتَه وهواه في مقابل إرادة الله، وأخرج إبليس من الجنّة عندما استكبر على أمر الله له بالسجود للمخلوق الجديد. وربّما وجدنا هذا المعنى في ما روي عن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام: «**لا يدخل الجنّة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرّة من كِبر**»[1].

وبناءً على ذلك، إذا كان السؤال: لماذا يجبُ أن ندعو؟ كان الجواب: لأنّه عبادة.

٢ـ الارتقاء الروحي

السبب الثاني الذي لأجله يجب أن ندعو، أنّه يمثّل حالة ارتقاءٍ روحيّ. الدُّعاء نفسُه يخلّصنا في داخلنا ممّا علق به

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص٣١٠، ح٦.

من أوساخ الدّنيا، ويطهّر أرواحنا من «فيروساتها». مجرّد الحديث مع الله سبحانه لذيذٌ وطيّب وعذب، ويُخرجنا من الظروف المادّية التي نعيش فيها ـ وأقصد هنا ظروف الحياة الدنيا ـ إلى العالم الآخر، إلى ما فوق الزمان والمكان، لنحاكي المطلق الموجود، واجب الوجود ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١)، الذي يفيض نعمه على عباده، من يسأله ومن لا يسأله، ولا إله إلّا هو، ولا ربّ سواه، ولا رازق غيره، وهو مليك كلّ شيء، واللطيف الخبير السميع العليم الحكيم، كل هذه الصفات نحن ندعو الله سبحانه بها.

إذًا الدّعاء حالة ارتقاء في الداخل، واقترابٌ واحتكاكٌ بالقيم التي ترمز إليها هذه الأسماء الحسنى، والتي منبعها الله، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾(٢)، معنى ذلك أنّنا ندعو الله من خلال الأسماء التي تجلّت معانيها في هذا العالم، فنحن نجد اللّطف والرزق والقدرة والقوّة والجبروت والكبرياء والعظمة وسائر الصفات والأسماء، نجدُها تتجلّى في هذا العالم، فعندما ندعوه بها فنحنُ نستدعي هذه القيم من منبعها الأصيل؛ لتكون جزءًا من تركيب شخصيّتنا وذهنيّتنا، وشيئًا من روحنا، وبُعدًا في أخلاقنا وسلوكنا في الحياة.

---

(١) سورة طه، الآية ٥٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

٣ـ التصريف النفسي

السبب الثالث الذي لأجله يجب أن ندعو الله هو ـ كما يقال ـ نوع من التفريغ النفسي. مَنْ هو أفضلُ مِنَ الذي يستر علينا لكي نلجأ إليه ونشكو له ونتحدّث معه عمّا يؤلمنا ويشغلنا ويهمّنا في الحياة؟! عن الأمور التي ربّما تضغط على ظروفنا وأوضاعنا، وتجعلنا نضعُف في كثير من الأحيان عن الثبات، وتدفعنا إلى أن نحزن ونغتمّ ونعيش الهمّ، وهو ثقيل على ظهورنا، مَنْ أفضل مَنْ نلجأ إليه غير الله؟!

نحن في كثيرٍ من الأحيان يسوؤنا أنّنا لا نجد في الناس من نشكو إليه.. وإذا وجدنا فقد نفاجأ بالكثيرين الذين يفشون ما أسررنا به إليهم للآخرين، ليس بالضرورة على الملأ، بل يكفي أن يسرّوه إلى بعض من يرتبط بهم، كأن يسرّ الزوج إلى زوجته أو بالعكس، في حين أنّ الإنسان قد لا يرغبُ في أن يعدو سرُّه الشخصَ الذي تحدّث معه!

في المقابل، عندما نتحدّث مع الله، فإنَّ الله يستُرُ علينا في ما نعصيه به، فكيفَ في الأمور التي نلجأ إليه فيها من موقع العبوديّة له؟!

٤ـ الدعاء ثقافة

الدعاء أيضًا هو ثقافة، وخصوصًا الأدعية القرآنيّة والأدعية المأثورة عن النّبيّ وأهل بيتهعليهم السلام. لو راجعنا مثلًا فهرس الأدعية التي اشتملت عليها الصحيفة السجّادية،

لوجدنا في مضمون كلّ دعاء ثقافة تحدّد لنا ما هي المفاهيم الإسلامية الأساسية التي تعني هذا العنوان أو ذاك، وكيف يجب أن ننظر إلى العالم، وكيف ندير علاقاتنا في هذه الدنيا.

ولذلك، ففي الوقت الذي نرتقي فيه روحيًّا ونعبّر فيه عن العبادة لله ونمارس نوعًا من التصريف النفسي، نحن أيضًا نكتسب ثقافة عميقة، وهي ثقافة وجودية تجعلنا نعرف كيف نصلُ نقطة البداية بالنهاية عبر المسار الواضح والطريق المستقيم في هذه الحياة.

٥ ـ طلب الحاجات

هذا الأمر بديهي، فالدّعاء هو لطلب الحاجات من الله عزّ وجلّ؛ لأنّنا الفقراء إليه وهو الغنيّ المطلق، وما يفتقر فيه بعضنا إلى البعض إنّما يقوم على تسخير الله تعالى الناس ليخدم بعضهم بعضًا، كما أشار قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾(١)، فلا يشعر الإنسان أنّه مفتقرٌ إلى أحدٍ بعيدًا عن الله تعالى، فهو الذي جعله سببًا لغناه، وهو الذي يمكن أن يقطعه عنه، وإذا كان في حاجةٍ إليه في شيءٍ فذلك الغنيّ في حاجةٍ إلى الفقير في شيءٍ آخر.. أيّ توازُنٍ أعمقُ من ذلك!

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

وأيًّا يكن الحال، فالله تعالى يريدنا أن ندعوه في كلّ شيء، وهو ما ورد عن رسول الله ﷺ: «**سَلوا الله عزّ وجلَّ ما بدا لكم من حوائجكم، حتّى شسْع النّعل؛ فإنّه إن لم ييسِّرْه لم يتيسَّر**»[1].

٦ ـ التواصل مع الله

السبب الأخير الذي يدعونا إلى الدُّعاء، هو أنّ الله سبحانه وتعالى يريد منا أن ندعوه لكي يبقى هناك تواصل بيننا وبينه، ولأجل ذلك نفهم التهديد الإلهي الوارد في بعض الآيات: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[2]، أي إنّك ـ أيّها الإنسان ـ إذا قطعت الصّلة بينك وبين الله، فإنّ الله سيقطع اهتمامه بك، ورعايته لك، وستكون كمّيّةً مهملةً في هذا الوجود.

إذًا، استمرار اللطف الإلهي مرهونٌ بالتواصل الدّائم مع الله، وذلك عبر الدّعاء. تخيّل أنّ الله تعالى ـ وهو الكريم المطلق والفيض العميم ـ أعطى كُلًّا منّا خطًّا ساخنًا للاتّصال به، وهو مجّانيّ، وبلا «كودات» أو كلمات مرور، ثمّ يأتي أحدُنا ليقطع الاتّصال! أي حرمانٍ هو ذلك؟! وأيّ زاويةٍ عدميّة سنكونُ فيها جرّاء ذلك؟!

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٣، ص٢٩٥، ح ٢٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧٧.

ثانيًا: ما هي شروط الدعاء؟

شروط الدعاء من المسائل الهامّة، حيثُ الدّعاء يحتاج إلى ما يضمن له الفعّالية الروحية، والتي هي الوسيلة الأساس للاستجابة. وهذه الشروط منها ما هو مرتبطٌ بالداخل الإنساني ومنها ما هو مرتبطٌ بأمور خارجيّة. ونتناول هنا بعض هذه الشروط:

الشرط الأول: التطهير الداخلي

إذا كان هناك حاسوبٌ يعاني وجود «فيروس» وتريد أن تحمّل فيه برنامجًا أو تطبيقًا عن طريق اتّصالك بالانترنت، فهذا الفيروس قد يعيق ذلك، والأمر ذاتُه قد يكون في داخل الإنسان، وذلك عندما يُعاني «فيروسات» أو ميكروبات أخلاقية وروحية ولفظية وفكرية، وذلك عندما لا نقوّي المناعة الإيمانيّة لدينا، أو بحسب الاصطلاح (anti-virus) وذلك لتعطيل دور الشيطان الذي يرسل لنا فيروسات، وهو موصولٌ معنا على الشبكة ذاتها. إذا لم نطهّر جهازنا الذاتي، فكريًّا وروحيًّا وعمليًّا، فكيف سيعمل جهازنا بشكل سليم؟!

ولذلك تذكر بعضُ الروايات أنّه «كان في بني إسرائيل رجلٌ فدعا الله أن يرزقه غلامًا ثلاث سنين، فلمّا رأى أنّ الله لا يجيبه قال: يا ربّ، أبعيدٌ أنا منك فلا تسمعني؟ أم قريبٌ أنت منّي فلا تجيبني؟! قال: فأتاه آتٍ في منامه فقال: إنّك تدعو الله عزّ وجلّ منذ ثلاث سنين بلسان بذيء، وقلبٍ عاتٍ

غير تقيّ، ونيّة غير صادقة، فأقلع عن بذائك وليتَّقِ اللهَ قلبُك ولتحسن نيّتك، قال: ففعل الرجل ذلك ثم دعا الله فولد له غلام»[1]. لا يمكن أن ندعو الله بآلة بذيئة، ولا بقلبٍ جبّارٍ، ولا بنيّة خبيثةٍ، ثم نطلب من الله أن يمنحنا ما نريدُ!

بتعبير آخر، عندما يكون أمرُنا كذلك، فإنّه سيسكنُ في قلوبنا غيرُ الله! الشيطان سيكون متربّعًا في القلب أو زاوية منه، وعندئذٍ ستكون أحاسيس الإنسان ملوّثة بشيء من الخبث، فتحتاج إلى أن يصيبها ماءُ الإيمان لكي تتطهّر.

ليسَ المانعُ هنا هو الله تعالى؛ المشكلة تكمنُ في الإنسان، ولذلك عندما ترتفع الحجُبُ والموانع، فإنّ الإجابة تأتي سريعةً، كلمحٍ بالبصر أو هو أقربُ.

الشرط الثاني: العمل

الشرط الثاني هو العمل. يُروى أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنّ أصنافًا من أمّتي لا يُستجابُ لهم**»، وممّن ذكرهُ منهم: «**رجل يقعد في بيته ويقول: ربّ ارزقني، ولا يخرج ولا يطلب الرزق، فيقول الله عزّ وجلّ له: عبدي، ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرتَ فيما بيني وبينك في الطلب لاتّباع أمري، ولكيلا تكون كَلًّا على أهلك، فإن شئتُ رزقتك، وإن شئتُ**

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٢٤-٣٢٥.

قترت عليك وأنت غيرُ معذور عندي»[1].

هذا الدّعاء فيه دلالات لافتة، وهي أنّ العمل مع الدّعاء شرط ضروري؛ لأنّه يحقّق العذر بين الإنسان والله، علمًا أنّ العمل هو وسيلةٌ من وسائل الله تعالى في إيصال الرزق إلى الإنسان إجابةً لدعائه.

فالله لا يُنزل النتائج على الإنسان بطريقة غيبيّة، وإنّما يهيّئ له أسبابها، فإذا كنت ـ أيّها الإنسان ـ في حاجة إلى فرصة عمل، فعلى الأقلّ قدّم طلبًا إلى الجهات التي تحتاج إلى موظَّفين وعمّال، وابحثْ عن ذلك، وادعُ لله تعالى في سياق ذلك. أرسل «السيرة الذاتية» لغير مكانٍ، فهذا يجعل اسمك مطروحًا إذا ما خلا موقعٌ من المواقع واحتاجوا إلى من يشغلُهُ، فقد تكون أنتَ الحائز على الشروط، ولكن إذا لم تقدّم طلبًا للتوظيف، فكيف سيعرفُ هؤلاء أنّك مطروحٌ لديهم؟!

الله تعالى لا يعملُ عن الإنسان، كأن يقول له: عبدي، ادعُني وأنا أسخّر لك ملائكتي وأنت جالسٌ في بيتك، لتصلَ اللقمة إلى فمك!

بل أيّها الإنسان، ابذلْ كلّ ما عليك حتّى تثبتَ لله أنّك مخلصٌ في دعائك، من خلال أنّك تستهدي كلّ القوانين الطبيعية والحياتية التي قام الكون والحياة عليها، وتستمرّ في القيام بما عليك تجاه تلك القوانين وأنت تدعو الله في كلّ لحظةٍ أن يهيّئ لك أسباب ما تريد، وأن يعدّل في بعض ما

(١) الكليني، الكافي، ج٥، ص٦٧، ج١.

يحتاج إلى تعديل، وما إلى ذلك.

عندما ذهب النبيّ موسى عليه السلام إلى مدين لم يكن يعرفُ أحدًا فيها، وهو كانَ قد دعا الله تعالى عندما خرج من مصر وهو مطالبٌ بدم: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. لكن كيفَ استجاب الله له؟ رأى جماعةً يستقون عند بئرٍ في مدين، ووجد امرأتين مستضعفتين تنتظران أن ينتهي الرجال لكي تستقيا، فسألهما عن حالهما فأخبَرَاه، وهنا قام موسى عليه السلام بما عليه، وسقى لهما، وكان شديد القوّة ورحيمًا بحالهما، وانتهى الأمر. ماذا صنعَ موسى عليه السلام بعد ذلك؟

أوى إلى ظلٍّ يرتاح عنده، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2]، فإذا بإحدى الفتاتين تأتيه لتقول له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، لبّى موسى عليه السلام دعوة أبيها ولمّا أتاه قال له: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. هذه كانت الاستجابة لدعائه الأوّل، ولولا كلّ هذا العمل منه والحركة لما تحقّقت هذه الأسباب.

الاستجابة لدعائه الثاني كانت نتيجة ذلك العمل أيضًا، وذلك عندما عرضَ عليه أن يتزوّج إحدى ابنتيه، وأن يعمل عنده أجيرًا ثماني سنين، وبذلك تحقّق الرزقُ لموسى عليه السلام بكلّ كرامة وعزّة.

---

(١) سورة القصص، الآية ٢١

(٢) سورة القصص، الآية ٢٤.

(٣) سورة القصص، الآية ٢٥.

إذًا ليس هناك استجابةٌ للدُّعاء من دون عمل، وهذا يحقّق الانسجام بين أمرين أساسيّين: بين التوحيد لله تعالى في كلّ شؤون الحياة؛ فإليه يرجع الأمرُ كلّه، وهو الذي بيده الرزق والعطاء، من جهة، والأخذ بقوانين الحياة التي جعلها الله تعالى، من جهة أخرى. وبهذا لا يكون حال المؤمن مختلفًا عن حال الكافر في ضرورة العمل، ولكنّه يتميّز عنه في أنّه يطلبُ من الله أن يهيّئ له ما يصلحه، ويتوكّل على الله في ذلك، كما أشار تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[1]، إضافةً إلى أنّ الدّعاء ينظّف النيّة التي تقفُ خلف العملِ أيضًا.

فالمؤمن ليس شغله فقط أن يصلّي ويدعو، ويترك البحث العلمي والاختراعات والاستثمار لثروات الأرض وتطوير المقدّرات. التعلّم والتدريب وما إلى ذلك، ثمّ يطلب من الله أن يجعل مجتمعاتنا ودولنا في المواقع العليا في الحياة! المطلوب دائمًا الدّعاء والعمل.

ثالثًا: بماذا ندعو؟

أ ـ الأدعية القرآنية

هذه الأدعية تكمن أهمّيتها في أنّها ممّا علّمنا الله تعالى أن ندعوه بها، وسوف نتوقّف عندها بشيء من التفصيل في ما يأتي بإذن الله.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٠٤.

ب ـ الأدعية المأثورة

هناك العديد من الأدعية المأثورة عن النّبي وآله عليهم السلام، والتي تتميّز بزخم روحيّ عالٍ، ومضمون ثقافي عميق، وأيضًا سنتحدّث عن هذه الجوانب لاحقًا إن شاء الله.

ج ـ الأدعية الشخصيّة

نقصد بالأدعية الشخصية تلك التي ينشئها الواحد منّا بالمضمون الذي يريد، وباللسان الذي يرتاح في التعبير به، وبالحالة التي تناسبه..

أن ندعو الله تعالى بألسنتنا؛ باللغة العامية أو الفصحى، بالإنجليزيّة أو الفرنسية أو الفارسيّة أو ما إلى ذلك.. ونطلبَ منه كلّ ما نريدُه من دون أيّ بروتوكولات ولا حواجز ولا اعتبارات؛ وفي أيّ حالةٍ كان الواحدُ منّا؛ ماشيًا أو جالسًا، نائمًا أو وهو يعمل... كلّ هذه الأوضاع التي نعيشها يستطيع الإنسان أن يظلّ متّصلًا فيها بالله تعالى. هذا أمرٌ فتحه الله على مصراعيه، ولم يجعل له من هذه الجهة أيّ شروط: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[2]، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[3]، حبل الوريد الذي يضخُّ الدم

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٣) سورة ق، الآية ١٦.

إلى الدّماغ كما يُقال، هذه الصّلة بين القلب ومركز التحكّم التي تتوقّف عليها حياة الإنسان وفاعليّته، اللهُ تعالى أقربُ إلى الإنسان منها.. يبقى أن تتحقّق منّا الاستجابة والدّعاء بكلّ إخلاصٍ وصلة.

❊❊❊

أدعية القرآن وأهميّتها

لماذا الدعاء مهم؟

على مشارف نهاية شهر رمضان المبارك، نحتاج إلى أن نتفكّر قليلًا في بعض الأعمال والسلوكيات التي لا بدّ من أن نحملها لما بعد شهر رمضان.

من جملة هذه الأمور الدعاء؛ لكونه الصلة العفوية بيننا وبين الله تعالى، فالدعاء ليس من العبادات التي فيها نوع من الأمور المرسومة، كما هي الصلاة التي فيها ركوع وسجود وأذكار وأقوال معيّنة لو أخلّ الإنسان فيها فإنّه يعرّض صلاته للبطلان.

الدّعاء تواصلٌ عفويّ مع الله سبحانه وتعالى الذي نبثّه الكثير ممّا يعرض لنا، ما قد يكون من وساوس الشياطين فنستعيذ بالله منها، وربّما تكون أفكارًا سلبية تجعلنا نعيش الضيق أو القلق ونطلب من الله العون على التخفّف من آثارها، وربّما تكون أفكارًا إيجابية ونريد من الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا للسير وفقها والعمل لتحقيقها، وربّما تكون أهدافًا ليومنا أو أسبوعنا أو لشهرنا أو لعمرنا، وربّما نكوِّن شعورًا بالتقصير في العمل ونريد من الله سبحانه وتعالى أن

يُتمّ لنا عملنا، وربّما تكون حاجة تعرض لنا في رزق نريده، أو قوّة نطلبها، أو توفيق وتسديد.. في كل هذه اللّحظات التي نعيشها كل يوم نحن لدينا حاجة إلى هذا التواصل.

الصِّلة مع الله بين الدعاء والصلاة

نعم، نحن لدينا الصّلاة التي نتواصل فيها مع الله سبحانه وتعالى بشكل مرسوم، وهذه لها الوظيفة الكبيرة في حياتنا؛ لأنّها تؤدّي إلى أن تعتاد نفوسنا موعدًا معيّنًا في اليوم لكي تلتقي الله سبحانه وتعالى، وهذا لون من الاعتياد أو «الروتين».

صحيح أنّ الاعتياد أو «الروتين» قد يتحوّل إلى حالة طقسية شكليّة، ولكنّ أصل الاعتياد ممّا يحتاج إليه الإنسان؛ لأنّ ذلك هو الذي يضبط أدمغتنا على قاعدة واضحة لتعاملنا مع المطلق، وهو غيرُ محسوسٍ لنا، ليكون جزءًا من المحسوس اليومي من خلال ارتباطه بوقتٍ معيّن أو بأداء محدّد وما إلى ذلك. تخيل مثلًا أنّ شخصًا بلا روتين واضح ليومه، فهو لا يقوم في الصباح ليذهب إلى العمل في وقتٍ محدّد، ويؤدّي بعض الأعمال والطقوس والمقدّمات لأعماله، وطريقة أدائها، إذا لم يكن لديه نوع من الروتين العام فهذا الإنسان يعيش ربّما الاضطراب والقلق والتوتّر؛ لأن الأمور غير واضحة بالنسبة إليه، ويحتاج إلى أن يبذل جهدًا في الأداء كلّ يوم، وأيضًا أن يكرّر تفكيره بالشيء الواحد كلّما أراد التعامل معه! العادة ـ حتّى بالنسبة إلى العبادات ـ هي أمرٌ نحتاج إليه لانتظام حياتنا وسهولتها.

لماذا الأدعية القرآنيّة؟

وما نريد تأكيده هنا هو نوع معيّن من الأدعية التي نحتاج إلى أن نولِيَها عناية خاصّة، وأن نحملها معنا إلى ما بعد شهر رمضان، وهي الأدعية القرآنية. لكن لماذا هذه الأدعية بالذات؟

لأنّ الله سبحانه وتعالى يُجريها على ألسنة عباده في آيات القرآن الكريم، وكأنّه يريد أن يشير إلينا بطريقة غير مباشرة، أنّكم أيّها الناس، ويا عبادي المؤمنين، هذه هي الأمور التي ينبغي أن تهتمّوا بأن تدعوني بها. اطلبوا منّي هذه الأمور، واهتمّوا بهذه القضايا، وضمّنوا أدعيتكم هذه الأشياء.

بمعنى آخر، اللهُ الذي هو أعلمُ بنا من أنفسنا، أشار إلينا إلى ما ندعوه به، والأهمّية تكمن هنا، في أنّي لا أنطلق من زاوية معيّنة، أو من جزئيّة معيّنة، أو من اهتمام شخصيّ معيّن، فأقوم وأدعو الله سبحانه وتعالى. بكلّ الأحوال، هذا أمر يمكن أن يحصل ويحتاجُ إليه الإنسان بلا شكّ، ولكنّ الله الذي خلقك، والذي يدبّر أمرك، ويعرف إلى ماذا تحتاج في حياتك، قال لك ادعُني بهذه الأدعية.

بناءً على ذلك، نستطيع أن نخرج بفكرة، وهي أنّ هذه الأدعية القرآنية بالذّات، على قلّة عدد كلماتها التي تجعلها سهلة الترداد والحفظ، فيها الكثير من الأمور الهامّة في حياتنا إذا تأمّلنا فيها، وهذه الأمور الهامّة تمثّل قواعد عامّة في طريقة نظرتنا إلى الحياة، أو ما يجري فيها، كما تمثّل القضايا العامّة

التي يجب أن يوليها الإنسان عناية في حياته.

قمتُ باختيار ثلاثة أدعية، لنقوم بعمليّة تفكّر فيها، انطلاقًا من النقطة التي أثرناها، وهي كيف يرتبط هذا الدعاء بتنظيم جهة من جهات حياتنا، لنتلمّس الأهمّية التي تحدّثنا عنها.

الدّعاء الأول:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

هذا الدّعاء ورد في سياق الحديث عن الحجّ في سورة البقرة، عن أولئك الذين يكونون في الحجّ ويدعون الله، ويبتهلون إليه في حاجاتهم، ويحدّثنا أنّهم صنفان؛ فهناك أناس يدعون الله ويطلبون منه حاجات الدنيا فقط، وأما اهتمامهم بالآخرة وحاجاتها فيقول عنهم: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، أي ليس له أيّ نصيب في الآخرة، لماذا؟ لأنه قصر تفكيره واهتمامه على الحياة الدنيا: يا رب أريد سيارة وبيتًا وعملًا ودخلًا عاليًا، وأريد جاهًا واللّذة المعيّنة والمصلحة المحدّدة وما إلى ذلك، ولكن أين الآخرة؟! ليست في الحسابات!

هذا نموذج من الناس يعطينا الله سبحانه وتعالى صورتهم في القرآن الكريم، وهو يريد أن يلفت نظرنا إلى الدّعاء الذي ينبغي أن ندعوه به، وأن نهتمّ بمضمونه. الدّعاء الأوّل هو

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠١.

دعاء مشروع لكنّه ناقص؛ لأنّ الإنسان لا يعيش في الدنيا فقط، فحياتنا ـ في المنظور الديني ـ تبدأ من لحظة وجودنا في هذه الدنيا وتستمرّ إلى لحظة الموت، وبعد الموت هناك حياة أخرى. إذًا الحياة تتّسع للدّنيا والآخرة، والذين يدعون الله سبحانه وتعالى للدنيا فقط هم يقتصرون على جزءٍ بسيط من الحياة. فالله سمّاها «الحياة الدنيا»، يعني التي هي في الموقع الأدنى والأسفل، وهناك حياة أرفع من هذه الحياة، كما أشار تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[1]. الحياة الحقيقية هناك.

أنت عندما تقصر اهتمامك على الحياة الدنيا، وتطلبُ في دعائك بين يدي الله ما يمثّل حاجاتها فقط، فإذًا أنت تحصر اهتمامك في جزء صغير من حياتك التي ينبغي أن تهتمّ بها كلّها، بمعنى أن تهتمّ بحياتك دنيا وآخرة.

ولذلك يعطينا الله تعالى النموذج الثاني، ويشير إلينا أن ندعو بهذا اللّون من الدعاء. يقول: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾، ليس أن يؤتينا في الدنيا كيفما كان وإنّما ﴿حَسَنَةٗ﴾، وكذلك ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾، كنتيجة لأعمالنا في الدنيا، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، في تحديد الوجهة الكبرى في كلّ ذلك، وهي أن يتجنّب الإنسان المصيرَ الذي يضيع فيه كلُّ وجوده، والعذابَ الذي هو نتيجة فقدان حياة الإنسان أيّ معنًى وثمرة.

---
(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

إذًا، الدّعاء يُشير إلى أنّ هناك رؤية تحكم ما أسعى إليه في هذه الحياة الدنيا، وبالتالي عندما أدعو الله سبحانه وتعالى: يا ربّ أعطني الدُّنيا، أي الدُّنيا من الطريق الذي هو حَسَنٌ لي، والحَسَن هو الذي يلتقي برضا الله سبحانه، وليس: أعطني الدنيا كيفما كان، كأن يدعو الإنسان: يا ربّ ارزقني حتّى لو كان من حرام، ويا رب زوّجني حتّى لو كان زواجًا يضرُّ ديني أو حتّى حياتي. فنحن حين نطلب من الله للحياة الدنيا فإننا نطلب نوعية حياة، لا مجرّد حياة..

هذا الدعاء هو دعاء استراتيجي ـ إذا صحّ التعبير ـ؛ لأنّه يحدّد نوع الحياة في الدنيا، ونوع النتائج في الآخرة، وطبيعة المصير الذي يسعى إليه؛ فإذا حاد الإنسان عن عذاب النار فحكمًا يكون قد نجا، والله يقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(١).

يمكن لنا هنا أن نتأمّل في نموذج طرحه القرآن الكريم، ويمكن أن يضيء لنا حول هذا البعد الاستراتيجي للدّعاء، وذلك حين حدثنا الله عن قارون، عندما حذّره قومه من أن يسترسل مع إحساسه بالزهو والبطر، ثمّ قالوا له ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾(٢)، فالله لا يطلب منا كمؤمنين أن نفكر في الآخرة وننسى الحياة الدنيا، بل يريدنا أن نعيش جيدًا، وإلى هذا أشارت بعض الأحاديث عن الأئمة عليهم السلام:

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

«**إذا أقبلت الدنيا فأحقّ الناس فيها أبرارها لا فجارها**»[1]، يعني أنّ الناس الأخيار أحقُّ بالتنعّم بنعيم الدّنيا من الأشرار، فالله يريد أن يُعبد في الحياة، ويريد للخير والعدل أن يعمّا الحياة، فمن هو الذي يقوم بكل ذلك؟ الأخيار وليس الأشرار.

هنا نُدرك أهمّية هذا الدعاء المختصر وارتباطه بقاعدة استراتيجية لنوعيّة الحياة التي يجب أن ننظر إليها ونهتمّ بها ونخطّط لها.

الدعاء الثاني:

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[2].

نموذج آخر من الأدعية القرآنيّة يرتبط بالوجود الاجتماعي للإنسان. هذا الوجود يرتكز إلى بُعدين: الجذر التاريخي، فالإنسان ينتمي بيولوجيًّا إلى أسرة، ويحملُ في ذاته صفاتٍ وراثيّة لمجموعة من الأشخاص الذين يمثّلون جذره التاريخي، ثمّ بعد ذلك يأتي الامتداد المستقبلي. فنحن نتاج مرحلةٍ وثمرتها، وهناك مرحلةٌ لا بدّ من أن نؤسّس لها في ما بعد.

يعلّمنا الله تعالى أن ندعوه بهذا الدّعاء، ويلفتنا إلى هذا المضمون. فالإنسان يطلب من الله أن يوزعه شكر النعمة،

---

(١) الكليني، **الكافي**، ج٥، ص٥٦، ح١.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ١٥.

والشكر هنا هو الشكرُ القلبي أوّلًا، بأن يعترف الإنسان لله بالجميل في مشاعره ووجدانه، ثمّ الشكر اللفظي ثانيًا، بحيث يعبّر عن هذا الذي شعر به في قلبه بجميل الله عليه، وبعد ذلك الشكر العملي، وهذا هو الأهمّ، بحيث يستثمرُ نعم الله سبحانه وتعالى في الطريق الذي يحبُّه الله ويرضاه، ويُعمِر الحياة ويصلحها ولا يفسدها.

﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، وذكر الوالدين هنا إشارة إلى المصدر الإنساني الطبيعي لهذه النّعم، وبالتالي أوزعني يا ربي أن أشكر النعم التي يا ربي أعطيتني إياها والنعم التي أعطيتها لوالدي وبقيت معي واستمرت معي وأنا بالتالي مسؤول عنها، وهذا كله اعترافٌ بالجذر التاريخي للإنسان، وهو يجعلنا دائمًا واعين لأنّ الإنسان ليس مفصولًا عن جذوره، وهو لم يأتِ إلى الحياة فردًا وإنّما له امتداد، وهذا الامتداد أعطاه نِعَمًا لا بدّ من أن يحافظ عليها. نعم هناك بعض الأشياء التي قد يعمل على التغيير فيها، ممّا تفرضه طبيعة التطوّر في الحياة، ولكن في المبدأ لا يأتي الإنسان لينسف كل شيء سبقه، على طريقة ما يروَّجُ له اليوم من طغيان الفردانيّة على تفكير الإنسان، كما يحصل في بعض المجتمعات، أن يبلغ الإنسان الثامنة عشرةً مثلًا، فيتعامل مع والديه كأي شخصٍ غريبٍ، فيتنكر لكل جذره التاريخي ويذهب للبحث عن ملفٍّ جديدٍ كلّيًا. وهذا خاطئ! فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أنعم على جذرك بأشياء وأتت إليك، بالتربية والوراثة والتأثّر، فانظر إلى هذه النعم التي وصلت إليك وحدّد كيف تشكرها.

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾، فشكر النعمة يكون في أن أستخدم هذه النعم في سبيل أن أعمل عملًا صالحًا يرضاه الله تعالى في حياتي، صالحًا في حياتي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمهنية، وفي علاقاتي مع الناس، وفي عباداتي التي تحقّق صلتي بالله، وما إلى ذلك. بتعبير آخر: في كل جزئية من جزئيات حياتي أنا أطلب من الله تعالى أن يوزعني شكر ذلك.

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾، فإذا اعترفنا بنعمة هذا الجذر التاريخي الذي ننتمي إليه، وهنا اعتزاز الإنسان بانتمائه الأسري في الجانب المشرق من حياته، وفي جانب القيم التي يرثها، وبعدها يكون عليه أن يورث ذلك أيضًا لذرّيته. في القرآن الكريم هناك اهتمام دائم بالذرية الصالحة والطيبة.

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾. هنا قد توجد إشارة لطيفة، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾، وبعدها يقول: ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾. كأنه يريد أن يقول لنا بأن واحدة من أهم شروط صلاح الذرّية هو صلاح أنفسنا، فكأنّ التوبة والتسليم لله شرطان ضروريان لإصلاح الذرية.

إذًا نحن لسنا أمام مجرّد دعاء لطلب حاجة جزئيّة، بل نحن أمام دعاء يحدّد لنا خطوطًا عامّة إدارة النعم التي لا بدّ من أن نستثمرها في صلاح الحياة وإصلاحها، وأن نشكر هذه النعم التي تأتينا من جذرنا وانتمائنا لآبائنا وأجدادنا، وأن

نحوّل هذه النعم والتي نكسبها في حياتنا إلى زادٍ ينتقل إلى أبنائنا أيضًا. فلا يطلب الإنسان فقط الولد، بل أن يكون الولد صالحًا، والذرّية طيبّة، وإلّا كنا أمام نموذج ابن نـوح عليه السلام، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[١] وهنا القضيّة الأساس في الانتماء، فالصلاح هو الذي يحقق الانتماء الحقيقي للأسرة، ونوعية حياة أفضل في الدّنيا، وأفضل في الآخرة، وعلى أساسه يجتمع الصّالحون على هدى جملة خُتم بها دعاءٌ شبيه بذلك: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢].

الدعاء الثالث:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣].

هذا الدّعاء يتضمّن أمرًا نحتاج إليه في علاقاتنا بأفراد المجتمع الإيماني، فكلنا نعيش هذا النوع من الإحساس بالانتماء إلى مجتمع إيماني، خصوصًا حين نكون في المغتربات، حيث تمسّ الحاجة إلى التلاحم والتعاضد

---

(١) سورة هود، الآية ٤٦.

(٢) سورة النمل، الآية ١٩.

(٣) سورة الحشر، الآية ١٠.

الاجتماعي. هنا نقول إنّ المؤمنين هم بشر، وبالتالي يمكن لهؤلاء البشر المؤمنين الذين يحبون الله ويعبدونه، أن يخطئ بعضهم في حقّ بعض ويواجه بعضهم مشاعر سلبية من بعض، فيتباعدوا أحيانًا، وتنمو الكراهية والعداوة والبغضاء في نفوسهم، وقد يختبرون الحسد على ما فضّل الله به بعضًا على بعضٍ. هذا الأمر موجود في أيّ مجتمع بشري، والبشر ليسوا ملائكة في النهاية. نعم لا شكّ في أنّ المؤمن دائمًا يسعى إلى إصلاح نفسه، ولكن هذا لا يعني أنّه لا يواجه مثل نقاط الضّعف هذه، والتي قد نكون كسبناها من التربية، أو من المجتمع..

في مجتمعنا الإيماني، يمكن لأحد أن يحسد آخر على موقعه ونعمه التي أعطاه الله إيّاها، أو تحصل مشكلة بين مؤمنين، فلا الأوّل يتواصل ولا المخطئ يعتذر، فتنمو المشاعر السلبيّة فيما بين المؤمنين، حتّى تصلَ إلى الفُرقة والعداوة.. وقد تتكرّر هذه المشاكل بين أطرافٍ أخرى، حتّى يتحوّل المجتمع إلى مجتمع مفكّك ومتباعد، ومثل هذا المجتمع لا يحضن نقاط ضعف الناس، وبالتالي سيكون سلبيًا تجاه المشكلة، فيزيدها تعقيدًا بدلًا من أن يعمل على حلّها، ويغذّي مشاعر القلق والتوتّر، بدلًا من نشر عناصر السكينة والطمأنينة وجانب الجمال الإيماني الذي نحن بحاجة إليه.

لذلك علّمنا الله تعالى هذا الدّعاء، الذي يشتمل على أمرين أساسيين:

الأوّل: الاعتراف لمن سبقنا من المؤمنين بالفضل؛ لأنّ إيماننا الذي هو جزء من إيمان هؤلاء الذين سبقونا وأوجدوا جوًّا إيمانيًّا، وبيئةً وأرضيّةً إيمانيتين، وبالتالي لا يمكن للجيل المؤمن أن يقول لا علاقة لي بالجيل الذي سبقني، أو ينعتهم بالتخلّف وبأنّهم لا يرقون إلى تطوّر الحال في زمان الجيل الثاني، فنقع في مشكلة التنكّر للجذر الإيماني الاجتماعي؛ وكما هناك جذر للوالدين هناك جذر للإيمان.. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾. دعونا نعترف بالفضل لمن سبقنا بالإيمان؛ لأن ذلك يسمح لنا أن نتلاقى معًا في تجاربهم، ونكتسب من خبرتهم ونسألهم عن بعض الظروف التي مروا فيها وكيف عالجوا المشكلات، وكيف طوّروا الأعمال ولو من خلال أساليبهم التي اختلفت عن أساليب زماننا، وهذا يعطينا امتدادًا لهذا العمر، فلا يشعر الجيل السابق بثقل الموت قبل الموت، وذلك عندما يُفرض عليه التقاعد، ولا يشعر الجيل الثاني بأنه يبدأ تجربته من الصفر، بل يرتكز إلى ما سبق، ويزيد عليه.

الثاني: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي إذا شعر أحدكم بأن بينه وبين المؤمن الآخر مشاعر سلبيّة، فليدعُ بهذا الدعاء، وثِقوا بأنَّ الله تعالى يُخرج الغِلَّ من داخل القلب. عندما يرى الله سبحانه وتعالى صدق النية في دعاء المؤمن، أن أخرِجْ ـ يا ربّ ـ ما في قلبي من مشاعر سلبية تجاه أخي المؤمن، فالله سبحانه وتعالى ينزع ذلك بأن يهيئ له السبُل لذلك، لكي يشعر بطمأنينة وسكينة، وهذا ما ينفتح

به على رؤية الجانب المشرق من أخيه، وترجع هذه المودة شيئًا فشيئًا..

ثمرة هذه الدعوات:

هذه ثلاثة نماذج من الأدعية، وهناك الكثير من أدعية القرآن التي لا بدّ من أن نحملها أدعية حياةٍ في كلّ أزمنة أعمارنا، ولو توفّرنا على دراسة مفاهيمها وتطبيقاتها في حياتنا، لامتلكنا زادًا كبيرًا من الاستراتيجيّات ومناهج الحياة، المغلّفة بغلافٍ روحيّ، نعيشُه دعاءً بين يدي المطلق..

هذه الأدعية قصيرةٌ في عدد كلماتها، ولكنّها مكثّفة في مضامينها، وهي تمثّل زبدة ما يريد الله للإنسان أن يدعوه به، وإذا قال الله لك أيّها الإنسان ادعُني بهذه الأدعية، فبالتأكيد لم يعلّمنا إلّا ليستجيب لنا، عندما يجد صدق النيّة من عبده، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

لنحرص على أن ندعو في القنوت بدعاءٍ واحد في صلاةٍ ـ على الأقلّ ـ من صلواتنا الخمس، وأن نردّد واحدًا منها مع كلّ حاجة تعرُض لنا، من رزقٍ أو زواجٍ أو ولدٍ أو ما إلى ذلك، ومع كلّ حالةٍ نعيشُ فيها الخوف أو الضعف؛ والله من وراء القصد.

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

ثلاثة أبعاد رائعة
في مدرسة الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام[1]

شهر رمضان هو شهر الدعاء، والذي نطلّ فيه على بعض ما أتحفنا به أهل البيت عليهم السلام، وهم مدرسة الإسلام الأصيل. وعندما ندخل مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فنحن لا ندخل مجموعة من الأدعية المأثورة ذات المضامين العادية، بل ندخل حيث نفوسٌ عرفت الله سبحانه وتعالى حقَّ معرفته، وكانت في الدرجة العليا من التقوى والقرب والعشق له عزَّ وجلَّ، وأيضًا ندخل حيث هي نفوسُ الأئمة الذين كان عليهم مسؤولية تعريف الناس بالإسلام وفكره ومبادئه وخطوطه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فإنّ الأدعية التي تُؤثَر عنهم هي أدعية ذاتُ مضامين روحية عالية؛ لأنّ نفوسهم في هذا الموقع الروحي العالي، وهي أدعية تعكس المفاهيم الإسلامية الأصيلة، والمضامينَ التي ينبغي على الإنسان أن يعرفها من جهة وأن يعمل لها من جهة ثانية، وأن يطلبها من الله سبحانه وتعالى في دعائه له.

---

(١) محاضرة أُلقيت بتاريخ ٣ أيّار/ مايو ٢٠٢٠م.

ما الذي يدفع الإنسان للمعصية؟

قبل الدخول في تحليل ذلك نحتاج إلى طرح سؤالٍ مرتبطٍ بالأسباب التي تدفعُ الإنسان إلى القيام بعملٍ ما، أو سلوك طريق معيّن، أو أداء ممارسة محدّدة، وربّما يحصل أن يواجِه نفسه بما ترغبُ فيمنعها، وبما تكرهُ فيحملها عليه؛ لأنّ هذه الرغبة تلتقي بسخط الله وغضبه، وذلك المكروه يلتقي بمحبّة الله، والسؤال: ما الذي يدفع الإنسان عادة لكي يقوم بذلك؟

هل مجرّد أن يعتقد ـ فكريًّا ـ بأنّ الله سبحانه وتعالى خالق الكون، وأنّ الله ربُّ العباد، وأنّه مالك الملك؟ استدلّت عقولنا على وجود الله ووحدانيّته، فهل هذا كافٍ ليستقيم الإنسان في سلوكه؟ كثيرٌ من الذين انحرفوا كانوا يعرفون الله معرفة نظرية وعقلية، وكثيرون ممّن واجهوا الأنبياء والأولياء ربّما وحتّى إنّهم قتلوهم، كانوا يعرفون مكانتهم! كثيرٌ من الناس الذين يعصون الله يعرفون بأنّ هذه المعصية هي معصية لله وهي محرّمة! كثيرون ممّن يتركون طاعة الله عزّ وجلّ أيضًا يعرفون بأنّ هذه الطاعة مطلوبة منهم وهي تفيدهم وفيها فلاحُهم في الدُّنيا ونجاتُهم في الآخرة!

إذًا المعرفةُ العَقَديّة وحدَها لا تكفي، بل المطلوب ـ مع المعرفة ـ أن يكون لدى الإنسان الإيمان، ومعنى الإيمان هو أن يكون لدى الإنسان نوع من الحضور للمعرفة في قلبه ووجدانه وأحاسيسه. الإنسان عقل ومشاعر وأحاسيس. لكنَّ المعرفة النظرية شيءٌ يكون في دماغ الإنسان، في موقع

القناعة العقليّة، أمّا المعرفة القلبية فهي بمعنى أن ينزل هذا الذي نعرفُهُ إلى قلوبنا فتشربه، يُصبح جزءًا ممّا نحسُّ به ونشعر، وجزءًا ممّا يحضر معنا في كلّ أحوالنا. هذا الأمر يحتاج إلى نوع من التربية التي تقومُ على الربط بين الفكرة ومظاهر حياتنا التي نعيش فيها، وأحوالنا التي نتقلّبُ فيها، وأوضاعنا التي تواجهنا، وهكذا. ولذلك الله سبحانه وتعالى عندما ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ ماذا قال لهم؟ قال لرسوله: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، أيِ المسألة من قبيل أنّنا حصلنا على الجنسية الإسلامية، أو مجرّد الانتماء إلى الاجتماع الإسلامي، وذلك يكفي فيه قولُ: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمَّدًا رسول الله»، أمّا أنّكم آمنتم؛ فالمسألة تحتاج إلى مستوًى أعلى، وإنّما يحقُّ لكم أن تقولوا ﴿أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[1].

إذًا، المسألة تبدأ بالإسلام الانتمائي ـ إذا صحَّ التعبير ـ، ليشرع الإنسانُ بعد ذلك في عملية ارتقاء الإسلام الانتمائي إلى نحو الإسلام الوجداني، حيث ينمّي الإنسانُ الحبَّ لله عزّ وجلّ، العشق لله، عظمة الله، جلال الله، الخوف من الله، الخشية من الله، وذلك هو الإيمان الذي أشارت إليه الآية الكريمة. أمّا كيف تتمُّ تربية ذلك الإيمان وتنميته، فهذا ما سنحاول الإضاءة عليه في مقاربتنا الآتية للدُّعاء، والمأثور منها بالذّات.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٤.

بناءً على ما تقدّم، لكي يتحرّك الإنسانُ في خطّ الاستقامة في الحياة، ولكي يكون تقيًّا فيقف عند حدود ما أمر الله به ونهى عنه، يحتاج إلى معرفةٍ أوّلًا، وإلى أن تنزل هذه المعرفة إلى وجدانه، بحيث تتولّد من هذين الأمرين معًا طاقةٌ في داخل نفسه، تدفعه إلى العمل بما يرضي الله ولو كان هواه عكسه، وإلى ترك ما يُسخط الله تعالى ولو كان هواه يدعوه إليه، ولذلك فنحن نرى أنّ دور العبادة ليس مجرّد أن يقومَ الإنسان بشعائريّتها وطقسها، فهذا هو الحدُّ الأدنى منها، كما يقولُ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾[1].

ليس الإيمانُ مجرّد أن نحصل على علامةٍ كاملةٍ في امتحان العقيدة نظريًّا، بل الإيمان أن يعيش الإنسان حضور الله عزّ وجلّ على طريقة قولِ أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله قبلَه ومعه وبعدَه**».. عندما أنظر إلى الشمس وهي تُشرق وتغيب، والقمر يبزغ ويسير منازله، والبحار تتحرّك، والأمواج والرياح والكائنات وأرى جسدي ونفسي، وكل ما حولي في الحياة، أجدُ الله في كلّ ذلك، أحسُّ بحضور الله. العبادة دورُها هو هذا؛ أن تحول الفكرة الإيمانية العقيدية إلى فكرة حيّة، فكرة محرّكة، فكرة يعيش فيها الإنسان توليدًا مستمرًّا للطاقة الإيمانيّة.

---

(١) سورة الحجّ، الآية ٣٧.

ثلاثيّة إيمانيّة

هذا الاتّصال الدّائم بالله سبحانه وتعالى يجعل الإنسان متّصلًا بمصدر مطلقٍ للطاقة الإيمانية التي تدفعه للحركة. وبالتالي نحن لدينا هذه الثلاثية:

١ ـ المعرفة.

٢ ـ الطاقة الإيمانية.

٣ ـ العمل.

من دون ذلك سيعمل الإنسان وسيقوم للصلاة وهو متثاقل: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]، ويبدأ الإنسان تعبيراتٍ متنوّعة عن تذمّره: لماذا فرض الله علينا الصّلاة؟ ماذا يريد الله منّا حتّى يعطّشنا ويجعلنا نصوم؟ ما هي حاجة الله إلى أن ندفع من أموالنا زكاةً وصدقات؟ ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾[2]؟! بينما الإنسان الذي يحبُّ الله يختلف الموضوع عنده؛ فإذا آتى شهرُ رمضان يأتيه كفرصة، فهذا زمان محبوب له، والصلاة عندما تأتي فهي قرّة عينه ـ كما كان يقول رسول الله ﷺ ـ وعندما يحينُ وقت الصلاة يقـول: «**أرِحْنا بها يا بلال**»[3]، ولمّا كان يدخل وقت الصلاة كان أهل البيت يرتعدون من خشية الله، وإذا ما سئلوا عن ذلك قالوا

---

(١) سورة النساء، الآية ٤٢.

(٢) سورة يس، الآية ٤٧.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٩٣.

ـ كما عن الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام ـ: «**حقٌّ على كُلّ مَنْ وَقَفَ بين يدي ربِّ العرشِ أن يصفرَّ لونُه وترتعدَ مفاصله**»[١].. هذا الواقفُ بين يدي مليك السماوات والأرض، من بيده الأمرُ كلّه، الواسعُ العليم، الحكيم الخبير...

مدرسة الحبّ

عندما ندخل مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الدُّعاء، فنحن ندخل مدرسة الحب لله عزّ وجلّ؛ وهذا الحبّ هو أقوى طاقة لدى الإنسان؛ فبالحبّ يُعطي الإنسانُ من دون مقابل، وبالحبّ يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، وبالحبّ يتجاوز كل العقبات في سبيل الوصول إلى محبوبه، ويصبر على الأذى، ويجاهد التحدّيات، ويتحمّل الآلام... كل هذا بسبب الحبّ.

ولذلك بناءُ علاقتنا بالله يجب أن تكون على أساس الحبّ، لا أن يكون الأمر كأنّنا نقفُ أمام جلّاد يريد أن يقتنص الفرصة حتى يعصي عبدُه لكي يقبض عليه متلبّسًا بالجريمة، وبالتالي يودعه في غياهب العذاب.. أبدًا، حتّى خشية الله يمكن أن تبتني على الحبّ الناشئ من الإحساس بعظمة الله، تلك التي تدفعه إلى أن يعيش الرهبة من مخالفة محبوبه.. طبعًا هذا مستوًى عالٍ من القُرب والحبّ..

اللهُ سبحانه وتعالى تحبّب إلينا وهو غنيٌّ عنّا، والله

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص ١٨٠.

تعالى هو يُغرينا بأن نقترب منه ونحن نبتعد عنه، كم نقرأ في دعاء الافتتاح هذه الفقرات! «**الحَمْدُ الذي يُجيبُني حين أناديه، ويسترُ عليَّ كلَّ عورةٍ وأنا أعصيه، ويُعظِّم النعمة علي فلا أجازيه، فكم من موهبة هنيئة قد أعطاني! وعظيمةٍ مَخوفةٍ قد كفاني! وبهجةٍ مونقةٍ قد أراني...**»[1]. إذًا الحبُّ لله عزّ وجلّ يمثّل هذا العطر المركّز الموجود في أدعية أهل البيت عليهم السلام.

لنحاول أن نبحر في فقرة صغيرة من دعاء السَّحَر المعروف بدعاء «أبي حمزة الثّمالي» الذي ندعو به في ليالي شهر رمضان الأواخر، طلبًا لليلة القدر، وأنا أذكرُ أن السيّد فضل الله الوالد رضوان الله عليه في أحد شهور شهر رمضان في مسجد الإمام الرّضا عليه السلام شرح هذا الدعاء، بكلّ فقراته، لكي يفهم الدّاعي عُمق المعاني عندما يريد أن يدعو، وبالتالي نحصل على ما يقدّمه هذا الدعاء من خلال وعينا لعمق ما يعيشُ في داخل نفوس أهل البيت عليهم السلام.

يقول عليه السلام: في الدعاء: «**يا غفارُ بنورِكَ اهْتَدَيْنا، وبفَضْلِكَ اسْتَغْنَيْنا، وبنِعْمَتِكَ أصْبَحْنا وأمْسَيْنا**».. نحن نستيقظ صباحًا على نعمِك، نتنفّس ونبصر ونسمعُ ونتحسّس الأشياء من حولنا.. ويأتي المساء ونحن في نعمتك، غنانا منكَ، وأنت الذي تفضّلت علينا بذلك من دون أن نستحقّ شيئًا منه.. نورُك هو الذي هدانا في هذا العالَم، بما منحتَنا إيّاه من المعرفة بك، وإدراك الأشياء من حولنا، والقوانين التي تحكم نظام الوجود

(١) تقي الدين بن علي الكفعمي، مصباح الكفعمي، ص ٦٧٩.

وأنت الذي أودعتَ ذلك كلّه، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾(١). هذا هو ربُّنا، القريبُ منّا، من حاجاتنا، من فقرنا..

فإذا أحسسنا بعظيم النّعم، وجميل المنن، طرحنا بين يديه ما أهمّنا: «**ذنوبُنا بين يديك، نستغفرُك اللهمَّ مِنْها ونتوبُ إليك**».. هذه ذنوبي التي ذهبَت لذّتها، ولزمتني آثارُها، أضعُها ـ يا ربّ ـ بين يديكَ، وأنت الذي تغسلُها وتعيدني إلى أفضل حالٍ عندك..

وهنا يبدأ ارتقاء الحبّ في الدّعاء؛ فمَن هو هذا الذي أضع ذنوبي بين يديه؟ وما هي علاقتي به؟ وما علاقته بي كعبدٍ وهو الغنيُّ عني؟ «**تتحبَّبُ إليْنا بالنِّعَم، ونُعارِضُكَ بالذُّنوب**»، هو يُنزلُ إلينا نعمَه، ونحن نرفعُ إليه الذّنوب والمعاصي له، «**خيرُك إلينا نازلٌ، وشَرُّنا إليك صاعدٌ، ولم يزل ولا يزال ملكٌ كريمٌ يأتيكَ عنّا بعملٍ قبيحٍ**»، يقصدُ الملكيْن الحافظين اللذين يكتبانِ ما نقوم به في لحظات اليوم والليلة، ونحن نرفع إليه العملَ القبيح، والمعصية الدنيئة، والمخالفة الموبقة، «**فلا يمنعُك ذلك من أن تحوطَنا بنعمِكَ، وتتفضّل علينا بآلائِك؛ فسبحانَكَ ما أحلمَكَ وأعظمَكَ وأكرمَكَ مُبدئًا ومعيدًا. تقدَّست أسماؤك، وجلَّ ثناؤك، وكرُمَ صنائعُكَ وفعالُك**»(٢).

هذه الفقرة وأمثالها كم فيها من روحِ المودّة والمحبّة

---

(١) سورة الأعرف، الآية ٤٣.

(٢) الإمام علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، دعاء السحر الكبير المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي.

لله، وكيف لا ينمو الحبُّ في قلبِ الإنسان الذي يدعو بهذا الدّعاء، ويعيشُه معانيَه، ويكرّرها لا عن ملَلٍ، بل محاولًا أن يرتقي في الإحساس بمضامينها، وأن يهتزّ كيانه على وقع روحانيّتها، فيرتفع بها في مستويات الحبِّ لله تعالى، والعشق له، والذوبان فيه!

لذلك نحن هنا ندخلُ مدرسة الحبّ لله، ونتدرَّبُ فيها يوميًّا أو شهريًّا أو في كلّ موسمٍ كلّما دعونا الله بهذه الأدعية، وهذا هو الذي يفعِّل طاقة الإيمان في داخل نفوسنا.

مدرسة الشُّكر

إلى جانب مدرسة الحبّ، سنجد لدى أهل البيت عليهم السلام مدرسة الشكر لله عزَّ وجَلَّ، الشكّر على ما أنعم، وعلى ما ابتلى، على ما يسرّ الإنسان وعلى ما يسوؤه.

في أحد الأدعية الواردة في (الصحيفة السجّادية) المرويّة عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، يدعو بها الإمامُ عليه السلام «إذا مرض، أو نزل به كرب أو بلية»، فيقولُ عليه السلام: «**اللَّهمَ لكَ الحمدُ على ما لم أزل أتصرَّفُ فيه من سلامةِ بدني، ولكَ الحمدُ على ما أحدثْتَ بي من عِلَّةٍ في جسدي، فما أدري يا إلهي أيّ الحالين أحقُّ بالشكر لك؟ وأيّ الوقتين أولى بالحمدِ لك؟ أوقتُ الصحّة التي هنّأتَني فيها طيّباتِ رزقك، ونشّطْتَني بها لابتغاءِ مرضاتِك وفضلِك، وقوّيتَني معها على ما وفّقتَني له من طاعَتِك؟ أم وقتُ العلّة التي محّصْتَني بها، والنِّعمِ التي أتحفتَني بها، تخفيفًا لما ثَقُلَ على ظهري من الخطيئات،**

وتطهيرًا لما انغَمَسْتُ فيه من السيّئات، وتنبيهًا لتناوُلِ التوبة، وتذكيرًا لمَحْوِ الحَوْبَة بقديم النعمة؟...»[1].

يبدو الإنسانُ في هذا الدّعاء محتارًا في كيفية شكر الله! هل أشكرُك على أن أنعمتَ عليّ سابقًا بالصحّة، أو مع المرض في ما أبقيتَهُ صحيحًا لم يصبه المرضُ؟ أو أشكرك على المرض نفسه الذي كان سببًا في أن تمحو به عنّي بعض السيّئات في صحيفة أعمالي، أو في الآثار التي تنطبعُ على نفسي، وكأنّ هذا المرض هو الذي ينظّفها..

هذا أعلى مستوى من التسليم والرضا اللذين يمكن أن يصلَ إليهما الإنسان، وهو لا يعني أنّ على الإنسان أن يختار المرض على الصحّة، أو الألم على الراحة، بل يعني أن يتعامل مع الحياة كما هي، وذلك الرضى هو الذي يجعله أقوى على تجاوز البلاء شعورًا إن لم يتجاوزه واقعًا.

هذا الأمر يجعلنا ننظر إلى جوانب الصورة المشعّة، وأن نحرص على التفكير الإيجابي دائمًا، ونعيشَ في كلّ ذلك لا الرضى فقط، وإنّما الشُّكر الذي يتحسّس النعمة في السّلب كما في الإيجاب.. نشكُره عندما تغتني وعندما نفتقر، عندما نقوى وعندما نضعف، حتّى عندما نغتني نشكره أن أتاح لنا باب التوبة.. وإذا حُرمنا من شيءٍ، فإنّ هناك نعمًا كثيرةً علينا أن لا نهملها أو لا نحسنَ التعامُل معها بسبب أنّ همّنا استغرقَ في ما ذهبَ، فكفّ عن الالتفات إلى ما لا يزالُ باقيًا..

---

(١) الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، من دعائه إذا مرض أو نزل به كرب أو بليّة.

كذلك، في أدعية أهل البيت عليهم السلام نتعلَّمُ كيف نعيشُ، وكيف ننظر إلى ظواهر الحياة، وكيف نتعامل معها، كيف ننظر ـ مثلًا ـ إلى أهل الغنى وأهل الفقر، وكيف ننظر إلى علاقتنا بآبائنا وأمّهاتنا، وكيف ننظر إلى علاقتنا بأولادنا، وكيف ننظر إلى علاقتنا بالله وبرسول الله، وعلاقتنا بأئمّتنا وبالهداة الذين هم يقودوننا إلى خطّ رضوان الله عزّ وجلّ، وكيف نعدل مع جيراننا، وكيف نَعدِلُ حتى مع أعدائنا. تخيّل الإمام زين العابدين عليه السلام لديه دعاءٌ «لأهل الثغور»[1] الذين يقفون عند حدود الدّولة الإسلامية ليحموها من الغزو الخارجي! مَنْ هُم هؤلاء؟ ما هي عقائدهم في أهل البيت عليهم السلام؟ ولأيّ سلطةٍ هم خاضعون؟ في زمانه كانت سلطة الدولة الأموية، هؤلاء الذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام وقبله الإمام الحسن عليه السلام ومارسوا الفظائع في كلّ الواقع الإسلامي.. لكنَّ الأفق الذي كان يتحرّك فيه الإمامُ كان واسعًا، لا يخلطُ فيه بين قضيّة وأخرى، وهو يعلمُ بأنّ هناك متطلّبات للحفاظ على الدّولة الإسلاميّة، وأمّا السلطة فستزولُ، لكن إذا زال الكيان الإسلامي فلن يبقى شيءٌ في هذا المجال.

هنا نفهم كم كان الإمامُ يحمل همَّ الإسلام في قوّته الاستراتيجية، وفي امتداده الزمني للمستقبل، بمعزل عمّا هي السلطة القائمة على كيان الإسلام السياسي. في النهاية

(١) الدعاء السابع والعشرون من أدعية الصحيفة السجادية.

الكيان يحفظنا جميعًا؛ وإذا ضعف الكيانُ وزال فمن يُقيمه بعد ذلك؟!

ولذلك يمكن أن نستفيد من ذلك ما يصلح أن يكون منهجًا في العمل السياسي، حيث كثيرًا ما تدعو الحاجة إلى هذا التمييز بين الكيان المؤسّسي الذي يتجاوز الأفراد، والأفراد أنفسهم الذين قد نجدهم غير جديرين بالحكم أو الإدارة أو السلطة. وهذا الأمر ليس سهلًا، بل يتطلّب أن يعيش الإنسان الروح الرساليّة التي لا يستغرق فيها في حجم اللحظة وإشكالاتها، ولا في ذاته وطموحاتها.

في مجالٍ آخر، نرى الإمام عليه السلام يبيّن لنا البرنامج العملي لليوم والليلة، وذلك في دعائه «في الصَّباح والمساء»، فيقول: **«اللهُمَّ وفِّقْنا في يومِنا هذا وليلَتِنا هذه وفي جميع أيّامنا، لاستعمال الخير، وهجران الشرِّ، وشُكر النِّعم، واتّباع السُّنن، ومجانبة البِدَع، والأمرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر، وحياطةِ الإسلام، وانتقاصِ الباطلِ وإذلاله، ونُصرةِ الحقِّ وإعزازه، وإرشاد الضّالِّ، ومعاونة الضّعيف، وإدراك اللهيف»**[1].

هذا برنامج عملي لليوم، يضعُ العناوين الكبرى من الناحية الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية، وهذه يواجه الإنسان كثيرًا من مصاديقها في كلّ يومٍ، بحيث يمكن أن تتحوّل هذه العناوين إلى عناوين قياس: ما الذي واجه منها في اليوم والليلة؟ وما الذي أنجز منها ونجح فيه؟ وما الذي

---

(١) الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، من دعائه عند الصباح والمساء.

فشل في القيام بمسؤوليّته؟ وإلى أي مدى؟

من أروع الأدعية التي ندعو بها في شهر رمضان ـ وليست مختصّة بهذا الشّهر ـ هو دعاؤه «في مكارم الأخلاق ومَرْضِيِّ الأفعال»، يقول في بعض فقراته: «**وسَدِّدْني لأن أُعارضَ مَنْ غَشَّني بالنُّصْحِ، وأجزيَ مَنْ هَجرني بالبِرِّ**»، يعني إذا غشّك أحدهم، ثمَّ جاء يطلبُ نصيحتَك فأنت لا تغشُّه، واحدةً بواحدةٍ، بل يَظْهر الإخلاصُ في سريرتك نُصحًا له، وإذا قاطعك إنسانٌ أو هجرك فأنت لا تقابله بمثل صنعه، بل تبرّه وتفعل الخير له.. «**وأثيبَ من حَرمَني بالبذل، وأكافي من قطعني بالصِّلة**»[1]، بحيث يكون الإنسان دائمًا ضِدِّيًّا بالنسبة إلى السوء الذي يواجهه به الآخرون، وهذه هي مكارمُ الأخلاق.

من جملة الأدعية دعاؤه «على الشيطان»[2] ذلك الذي نخوضُ كلّ الصراع معه منذ خلقنا، وكلُّ شُغله أن يجعلنا كافرين بالله ونعمه، منحرفين عن خطّ طاعته، فيقوم الإمام عليه السلام بتفصيل خطوط هذه الصراع ومصاديقه، ويجولُ في الأمور التي يطلبها الإنسان من الله، بحيث تتحوّل الاستعاذة من الشيطان إلى برنامج حياة، وحركة إدارة للصراع تحت عين الله.

في العلاقات هناك دعاؤه لأبويْه، ولولده، ولجيرانه. مَنْ

---

(١) المصدر السابق، من دعائه في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال. الدعاء الثامن.

(٢) المصدر نفسه، الدعاء السابع عشر.

منّا يدعو لجيرانه؟ ومَنْ منّا يتصوّر المعاني التي يمكن أن يدعو لجيرانه بها؟

يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«**وفّقْهُم لإقامةِ سنّتِك، والأخذِ بمحاسنِ أدبِك، في إرفاقِ ضعيفهم، وسدِّ خلّتهم، وعيادةِ مريضِهم، وهدايةِ مسترشِدِهم، ومناصَحَة مُسْتَشيرهم، وتَعَهُّد قادِمِهم، وكتمانِ أسرارهم، وسترِ عوراتهم، ونُصرةِ مظلومِهم، وحُسنِ مواساتِهم بالماعون، والعَوْدِ عليهم بالجِدة والإفضال، وإعطاء ما يجبُ لهم قبل السؤال، واجعلني اللهمَّ أجزي بالإحسان مسيئَهُم، وأعرضُ بالتجاوز عن ظالمهم...**»[1]. كم من المشاكل التي تحصل عادة بين الجيران ستزول أو تخفّ وتيرتها إذا عاش الإنسان هذه الروحيّة؟!

خاتمة المطاف

وخلاصة كلّ ذلك، أنّ هذه الأدعية المأثورة ليست مجرّد مقاطع أدبيّة روحيّة مجرّدة، بل هي مدارسُ في الحبّ والشكر والحياة والأدب والمعاملة ومكارم الأفعال والارتقاء الإنساني، وعندما تُنسبُ هذه كلّها إلى تلك الرموز النيّرة، والنماذج المضيئة في عالم الإيمان والإنسان، فإنّ التتلمذ على هذه المدرسة يمنحنا المعرفة والروح اللتين تتحوّلان معًا إلى طاقة محرّكة، وحافزٍ للاستقامة، وقوّة على مواجهة

---

(١) المصدر السابق، من دعائه لجيرانه وأوليائه إذا ذكرهم، الدعاء السادس والعشرون.

التحدّيات، تحدّيات النفس والخارج، وإلى ثباتٍ على خطّ التقوى، وأملٍ دائمٍ بالله تعالى.

وهذا ما يجب أن نعيشه عندما ندعو بهذه الأدعية المأثورة، لا أن يكون همّنا كيف نطوي صفحاتها، ومتى ننتهي من الأدعية الطويلة!.

صحيحٌ أنّ الدّعاء يجبُ أن يكون نابعًا من القلبِ، وأنّه عبادةٌ لا بروتوكولات خاصّة بها، وإنّما تُركت لحرّية الإنسان وإقباله بل بعفويّته في تعبيره عمّا يدور في ذهنه وعن حاجاته، ولذلك يتمّ التوجيه إلى أنّ الدّعاء النابع من القلب هو الأقربُ وصولًا إلى إجابة الله تعالى، وقد يرى البعضُ أنّه لا مانع من أن يترك الإنسانُ الأدعية المأثورة، وينسجَ أدعيته الموصولة بروحه.. هذا الأمر صحيح.. لكنّ ما أردناه من كلّ ما تقدّم أنّ للأدعية المأثورة وظيفة، وهي لا تبتعدُ عن روحانيّة الإنسان وشؤونه وأوضاعه المتنوّعة؛ فإنّ الإمام عليه السلام يدعو من موقعه الإنسانيّ، وهو الأعرفُ به..

إلّا أنّ ما يفقده الإنسان من إهماله لتلك الأدعية المأثورة لا يستطيع الحصول عليه من أدعيته التي تنطلق من أفقه الخاصّ، ومن محدوديّة تجربته الحياتية أو الروحية أو ما إلى ذلك.. وغالبًا ما يقتصر الدّعاء العفويّ على طلب حاجات معيّنة، ولا يطلُّ على آفاقٍ ثقافيّة كالتي يستهدفها الدّعاء المأثور.

ولعلّنا نستطيع هنا أن نجد بالتجربة أنّ الإنسان المواظب

على تلك الأدعية، يستطيع أن يرتقي في إدراكه لمعانيها، وأن يتفاعل مع تعبيراتها، وأن يعيش روحانيّتها شيئًا فشيئًا.

ولذلك، لن يستغني الإنسان المؤمن عن الدّعاء كمدرسة تربوية، إلى جانب دعائه العفوي في كل حالةٍ من حالاته، وكل شأنٍ من شؤونه؛ والله من وراء القصد.

❊❊❊

في ليلة القدر
أيَّ ملفات نفتحها بين يدي الله؟[1]

ليلة القدر هي واحدة من الأزمنة المميّزة التي اختارها الله سبحانه وتعالى، وإلّا فهي من حيث الزمن المادّي، في حركة الشمس، لا تختلف عن أيّ ليلة أخرى من ليالي السنة، فهي الليلة التي تغرب فيها الشمس ثم بعدها يطلع الفجر ويبدأ نهارٌ جديد. لكنَّ الله سبحانه وتعالى من خلال ما يفيضه في هذه الليلة جعلها ليلة مميّزة عن غيرها، من خلال اختيار الله لها، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعطيها المضمون النوراني، والمضمون الروحي، والمضمون المرتبط بحياتنا أيضًا؛ لأنَّ «القَدْرَ» من التقدير، والذي قد يلتقي بمعنى تحديد المسار لحياتنا، أو هي بمعنى التخطيط الذي يتطلّب إمضاء الله تعالى لها حتّى تكون موضع التقدير الإلهي في حركة الأسباب والمسبّبات.

بالتالي لسنا أمام ليلةٍ عاديّة، وحتّى إنّنا لسنا أمام ليلةٍ تساوي سائر ليالي شهر رمضان، بل نحن أمام ليلة ترتبط بمصيرنا وبحركة أعمارنا بشكل وبآخر.

---

(١) محاضرة ألقيت بتاريخ ١٠ أيّار/ مايو ٢٠٢٠م

ميزات ليلة القدر

ورد الحديث ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ عن ليلة القدر في سور ومقاطع قرآنيّة عدّة، فوردت ضمن آيات الصّيام في سورة البقرة، والدّخان والقدر، ويمكن لنا أن نستخلص ميزات أساسيّة عدّة:

١ـ ليلة نزول القرآن

الميزة الأولى أنّها الليلة التي نزل فيها القرآن الكريم، بمعنى أنّه بدأ فيها نزول القرآن الكريم على قلب نبيّ الرّحمة محمّد ﷺ، فهي الليلة التي أراد الله فيها أن يبدأ بثّ رسالته النهائية والخاتمة إلى العالم، ليتلوها النبيّ ﷺ على مجموعة من الناس في بقعة جغرافية محدّدة من الجزيرة العربية، ويبدأ من هناك الانتشار لهذه الرسالة إلى العالم كلّه. ليست هذه الرسالة رسالة خاصّة بشعب دون شعب، ولا بمكانٍ دون آخر، وإنّما هي رسالةٌ شاملةٌ للعالَم كلّه، وللشعوب جميعًا، ولكلّ الأزمان القادمة، وتعني البشريّة على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها واهتماماتها وما إلى ذلك.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[1]، أيْ إنّنا أنْزَلْنا القرآن في ليلة القدر، وهو وإن كان ذكر هنا الضمير ـ فقال: ﴿أنزلناهُ﴾ ـ لكنّه في سورة البقرة أوضح مرجع الضَّمير بقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ

(١) سورة القدر، الآية ١.

ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[1]، فإذا كانت ليلة القدر من شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، فيكون المعنى النهائي أنّ الله أنزلَ القرآن الكريم في هذه الليلة.

وفي آيةٍ أخرى وصفَ اللهُ تعالى هذه الليلة بأنّها ليلة مباركة، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾[2]، والبَرَكة هي الزيادة والنّماء، وبركاتُ هذه الليلة التي تعمّ الإنسان من ربِّه عزّ وجلّ بما جعله فيها، تفرض على الإنسان أن يقوم بمسؤوليّته تجاه تلك الليلة، أو ـ بتعبير أدقّ ـ تجاه مصيره الذي يمكن أن يتحدّد فيها؛ لأنّ الله تعالى لا يريدنا أن نقدّم أضحياتنا أو جهودَنا للزَّمن، ولا أن نقدّمها إليه لأنه يحتاج إليها؛ حاشا لوجهه الكريم، فالله هو الغنيّ عن كلّ شيء. الله تعالى يريد منا أن نقوم بمسؤوليّتنا في تلك الليلة لأجل أنفسنا.

بكلّ الأحوال، إذا كانت هذه الليلة قد ارتبطت بعلاقة مميّزة بالقرآن الكريم، حيثُ كان الرّسالة التي فتحت لأجلها السماء في اتّجاه الأرض، فإنّ ليلة القدر لا بدَّ من أن تُفتح فيها السّماء في كلّ عامٍ، ليكون التواصل من قبل الإنسان مع السماء التي فتحت كل أبوابها فيها، والمطلوب منا نحن أن نفتح قلوبنا وعقولنا، وأن نلقي كلّ نفوسنا بين يدي الله سبحانه وتعالى، ليصوغها القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) سورة الدّخان، الآية ٣.

٢ ـ خير من ألف شهر

هذه الليلة هي ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[1]، ولو قمنا بحسابٍ للزَّمَن الذي يعبّر عن ألف شهرٍ، لوجدناه ما يقرب من متوسّط عمر الإنسان، وذلك يساوي ثمانين سنة تقريبًا. ربّما كانت هذه إشارة الى أنّ هذه الليلة قد تساوي كلّ عمرك أيّها الإنسان، وبالتالي قد تحدّد فيها مسارك ومصيرَك في هذه الحياة.

هنا لا ينبغي النظر إلى ليلة القدر بحدودها الزمنية الضيّقة، وإنّما بما فيها من بَرَكَاتٍ، وما ترمز إليه من معانٍ، وما يفيض فيها الله على الإنسان من لطفه ومغفرته ونعمه، وملاحظة كل ذلك على امتداد العمر.

وبتعبير آخر، نحن معنيّون بالبحث عن مشروعنا في هذه الليلة، ما هو مشروعنا للعمر؟ إذا لم يحدّد المرء مشروعه وما يريد لحياته؛ ليس للحياة الدنيا فقط، وإنّما ما يرتبط بالآخرة أيضًا، فماذا سيضع بين يدي الله في ليلة القدر؟!

ليلة القدر هي اللّيلة التي تتصل فيها الأرض بالسماء، والخير فيها نازل من الله سبحانه، والملائكة تتنزّل فيها، والروح يتنزّل، وكل هذه الفيوضات الروحية مفتوحة الأبواب، والباقي فقط هو أن يكون هناك اتّصالٌ منّا نحن البشر، بحيث نقوم بإكمال هذه الدائرة من الاتّصال الروحي.. أن يكون لدينا اتّصال نحن من الأرض نحو السّماء، ووسيلةُ الاتّصال هي

(١) سورة القدر، الآية ٣.

الدّعاء الذي لا يقتصر فيه الإنسان على رفع كفّيه إلى السّماء، ولا على رفعِ صوتِهِ بالخطاب لله وطلب الحاجات منه، وإنّما يرفع كيانه وكلّ روحه وقلبه وهمومه ومشاكله وأوضاعه واهتماماته وطموحاته إلى الله سبحانه وتعالى.

بعضُ الروايات المأثورة تتحدّث عن أنّ الله تعالى يعلمُ ضمير الصّامتين، ولكنّه يحبُّ أن يسمعَ صوتَ عبده المؤمن(١) بطلب الحاجة منه، وببثّ شكواه إليه.. هذا الأمر قد لا يكون مسألة حبّ مجرّد لسماع الصّوت، بل هو مسألة مرتبطة بسماع صوت الرّوح، التي تتلوّن تقاسيمها بألوان العبوديّة، فتقطعُ نظرها عمّا في أيدي النّاس، وتكفُّ عن استحضار الأنا في تحقيق الغايات، وتضعُ كلّ شيء بيد الله، ليكون أكثر ثقةً بما في يده تعالى ممّا في يده(٢)،

٣ ـ ليلة التقدير

ليلة القدر هي ليلة التقدير. قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾(٣)، وفي سورة القدر قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾(٤). هذا

---

(١) من ذلك ما ورد عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «**إنّ العبد ليدعو فيقول الله عزّ وجلّ للمَلكين: قد استجبتُ له ولكن احبسوه بحاجته، فإنّي أحبُّ أن أسمع صوته**»/ الكافي، ج٢، ص٤٨٩، ح٣.

(٢) هذا مضمون ما روي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده**»/ نهج البلاغة، ج٤، ص٧٤، الكلمة رقم ٣١٠.

(٣) سورة الدّخان، الآية ٤

(٤) سورة القدر، الآية ٤.

الأمر الحكيم هو الذي يمثّل الحكمة في حركة الأشياء والأوضاع، بحيث يكونُ كلُّ شيءٍ في موقعه المناسب، سواء في الطموحات التي يريد الإنسان تحقيقها في نفسه، أو في المشاريع التي يرغب في إنجازها. وغالبًا الإنسانُ يخطّط لِسَنَةٍ، وبعض المشاريع تتطلّب أكثر من سنةٍ فيوزّع خطّة إنجازها عليها، فيقال ـ مثلًا ـ: خطّة خمسية أو عشريّة، أي التي يستغرقُ إنجازها خمس سنوات أو عشر، وهكذا.

وحيثُ إنّ ليلة القدر تأتي في كلّ عام، فيكون التقدير منها لحركة الزمن في العام القادم، في كلّ ما يتضمّنه من أهدافٍ ومشاريع واهتمامات وطموحات، وبالتالي إن استغلَّ الإنسانُ فرصةَ أنَّ أبوابَ مَن بيده التقديرُ مُفتّحة على كلّ معاني الفيض الإلهي والرحمة الشاملة واللطف العميم، فإنّ رفعه للملفّات التي تهمّه سيكون في محلِّ اللطف والرحمة والفيض الإلهي.

كمثالٍ على ذلك ـ مع الفارق طبعًا ـ، قد يتطلّب الحصول على عملٍ تقديم «سيرة ذاتيّة» وبعض المستندات المطلوبة، واجتياز امتحانٍ ما، وما إلى ذلك، وهذه تتطلّب وقتًا ومسارًا لتصلَ إلى مَن بيده القرار، وأحيانًا تنامُ في الأدراج نتيجة إهمال هذا الموظّف أو ذاك فلا تصلُ إلى محلّها لأجل البتّ بها.. وأحيانًا يكون هنك مناسبات يقومُ المسؤول المُقَرِّر نفسُه بمقابلة أصحاب الشّأن، بحيثُ يُختصر كلّ ذلك المسار والزمن ويكون ملفّ الحصول على الوظيفة جاهزًا للإمضاء النهائي.

لعلّ الأمر في ليلة القدر يمثّل هذا الاختصار للزّمن، لا من جهة الله تعالى، بل من جهة العبدِ وكلِّ الحُجُب التي تكون بينه وبين إيصال طلبه، ووسيلةُ الطَّلَبِ هي الدّعاء، أن يقدّر لنا الخَيْرَ في هذا الزمن القادم، بحيث يحدّد لنا مساراته الواضحة، ويفعّل لنا خطّتنا من خلال تصويبِ أهدافها، وتهيئة الأدوات والآليّات التي تمكّننا من تحقيقها.

نعم، أحيانًا نضعُ خطّةً ما، ولكنْ هل نتخيّل أنّ الله تعالى الحكيم الخبير الذي يعلمُ السرّ وأخفى، وبيده مقاليدُ كلّ شيء، عندما نتوكّل عليه، ونطلبُ منه أن يهيّئ لنا ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾[1]، إلى أيّ مدًى يمكن أن يهيّئ لنا من وسائل وأدوات نحتاجُ إليها في تحقيق ما نصبو إليه، وإلى أيّ مدًى يمكن أن يمنعَ بعض الأهداف من أن تتحقّق بسبب أنّها ضارّة بالمشروع الذي نعمل عليه، أو بالرغبة التي نسعى إلى تحقيقها، أو بالطموح الذي نحبُّ أن نصلَ إليه، ولكنّنا لقصورِنا في إدراك المستقبل والخفايا لا نعلمُ بحجم الضرر فيه، فيقينا الله ذلك بلطفه، وبأنّنا أخلصنا في الثقة بما عندَه قياسًا بما عندَنا.. ولعلّ بعض الإشارات القرآنيّة تعطينا فكرةً عن هذا المعنى، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[2]، حيثُ

(١) ورد هذا التعبير في قصة أهل الكهف، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ سورة الكهف، الآية ١٠.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.

إنّ العفو عن الوقوع في المصائب منه تعالى يحصل ونحن لا نعلمُ كثيرًا عنه، وفي دعاء الافتتاح يقول: «**فإنْ أبْطَأَ عنّي عتبْتُ بجَهْلي عليْكَ، ولعلَّ الذي أبْطَأ عنّي خيْرٌ لي؛ لِعِلْمِكَ بِعاقِبَةِ الأمور**»[١].

٤ـ ليلة السلام

ليلة القدر أيضًا هي ليلة السَّلام التي تغسلُ كلَّ حالات الشرّ والبغضاء والحقد والحسد وكلِّ الأخلاق المقلقة لطمأنينة النفس، والتي تثقل سكينَتَها.. وكأنَّ هذا المعنى يحصلُ نتيجة العلاقة بالله، والانفتاح على كلّ آفاقِه، بحيث تصغُرُ عند الإنسان الأشياء والأوضاع القلقة، والصراعات المادّية التي يدخلُ فيها الناس، فيستهلكون جهودهم وأوقاتهم في سبيل الحصول على حطامٍ هنا، أو انتصارٍ على الآخر هناك، وما إلى ذلك.

إنّ الإنسان في حاجةٍ إلى هذه الروحيّة من السَّلام، لينصرفَ إلى عملِهِ في السنة القادمة، وإنّ دخول الزمن في كلّ ما يهمّنا فيه محمّلين بكلّ ذلك القلق النفسي، والضعف الروحي، ينعكسُ على طريقة أدائنا لأعمالنا؛ لأنّ الحياة تتطلّب أن يكون الإنسان متوازنًا هادئًا لكي يواجه التحدّيات والعقبات التي يمكن أن تقفَ في طريقه..

(١) ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج١، ص٣٠١.

ما هو المطلوب في هذه الليلة؟

انطلاقا من ذلك، ما هو المطلوب منا في هذه الليلة؟

المطلوب أن لا نحرّك ألسنتنا بالدُّعاء فقط، بل أن نفتح قلوبنا وأنفسنا بكُلّها لله سبحانه. ربّما يكون لدى المرء منّا في داخل نفسه غُرَفٌ مغلقة حتّى على أقرب المقرّبين إليه، وأحيانا هناك الكثير من الأمور لا يسرُّها الإنسان للناس اللّصيقين به، والذين يُشاركونه حياته، لكن بين يدي الله عز وجل نحتاج إلى فتح هذه الغُرَفِ المغلقة. ولذلك ربّما يحتاج المرء منّا في ليلة القدر الى جلسة هدوء مع الله تعالى، يُعيد فيها النظر في كلّ ملفّاته، في فكره ونفسه وشخصيّته، بين يدي الله عزّ وجلّ، في حالةٍ هي أشبهُ بعمليّة تنظيفٍ للذات، وتطهيرٍ للنفس.. نفتحُ كلّ هذه الملفّات بين يديه؛ ما يزعجنا منها وما يؤلمنا، وما يشكّل همًّا في نفوسنا، وثقلًا على مشاعرنا وأحاسيسنا، وربّما شكًّا في بعض مفاهيمنا وأفكارنا، وتعثّرًا في بعض خطواتنا، ونقول له: يا ربّ، هذه نفوسُنا كلّها بين يديك، نستغفركُ ونطلبُ عفوَكَ وصفحَك وإعانتَك وتسديدَك.

هذه الليلة هي فرصة حقيقيّة لفتح صفحة جديدة من أعمارنا، ليس فيما يرتبط بالعمل فقط، وإنّما فتح صفحة جديدة في ما يرتبط بالروح أيضًا. أرواحُنا يجبُ أن تفتح هذه الصفحة من جديد، ولذلك هي فرصة ليس بعدها فرصة؛ لأنّنا لا ندري، هل نبلغ ليلة قدرٍ أخرى في العام القادم؟ كم

من الناس الذين كانوا معنا في العام الماضي ليسوا موجودين معنا اليوم؟! غادرونا بغتةً وفي غفلة، ونحن قد نكون من هؤلاء في العام القادم! لا ندري في أيّ يوم يأتي النداء من الله فنغادر هذه الحياة إلى العالم الآخر!

ثمّ لو تقاعسنا هذا العام عن التطهّر في ليلة القدر، فكم ستتراكم الأوساخُ إلى العام القادم، وربّما لِما بعده من الأعوام لو تقاعسنا الآن؟! وهل ستكون نفوسُنا قابلةً للتطهّر في ليلةٍ واحدةٍ حينئذٍ؟ وكم من الجهد علينا أن نبذل؟

إنّ بعض الأفكار الخاطئة التي تشكّل مانعًا لنا من التقرّب إلى الله والتطهّر بين يديه، هو أنّنا اعتدنا على حياة الاستهلاك؛ نقصدُ المتجر لنشتري منظّفًا ثمّ نستخدمه فنحصل على النتيجة.. وكأنّنا نفترض أنّنا إذا قرأنا بعض الأدعية كانت النتيجة أن تنزل الملائكة بأدوات التنظيف لتطهّرنا من الأوبئة النفسية والأمراض الروحية بشكل آليّ! أبدًا، التطهّر يبدأ أوّلًا بإخلاص النيّة بين يدي الله، وذلك لا يكون إلا من خلال وعي ما نحن فيه وفي حاجة إليه، ثمّ ليتشكّل من ليلة القدر مسارٌ للتطهّر، نبذل فيه الجهد بالعبادة والعمل الصّالح، ونطلبُ من الله تعالى أن يتقبّلنا في هؤلاء، فيسدّد خطانا للطريق الطاهر والمستقيم، ويثبّط عزائمنا عندما تميل نفوسُنا إلى الانحراف نحو السُّبُل الشيطانية المليئة بالخبثِ في شكلٍ برّاق.. والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]، التبديل هنا، وقلبُ الصفحة السوداء إلى بياضِ صفحة جديدة، هو مسارٌ تابعٌ للخطوات الثلاث: التوبة والإيمان والعمل الصّالح.. وأمام كلّ ذلك لا ندري إذا تراكمت الذنوب والمعاصي والانحرافات والأمراض الروحية فكم من الجهد علينا أن نبذل للتطهّر؟ وكم من الزمن سيستغرق ذلك؟ هذا كلّه إذا لم نصلْ إلى مرحلة اللاعودة، وهي التي أشار الله إليها بقوله: ﴿**ختمَ اللهُ على قلوبِهِم**﴾[2]، وكأنّ قلوبهم لا تعودُ قابلةً لتلقّي الفيض الإلهيّ والرحمة والمغفرة.

إذًا، هذه الليلة هي فرصة بالنسبة إلينا لأننا لا ندري هل نبلغ فرصةً أخرى أم لا؟ إذا كان الفيض الإلهي في هذه الليلة بهذا الزخم، فإننا نحتاج إلى أن نقابل هذا الفيض بمستوى كبير من الحرص على مستقبلنا، وعلى تطهير نفوسنا من الداخل.

من جُملة الأدعية التي تقرأ في سحر شهر رمضان، وبالتالي في ليالي القدر هو دعاء أبي حمزة الثمالي المرويّ عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، نقول فيه: «**ياغَفَّارُ بِنُورِكَ اهْتَدَيْنا، وَبِفَضْلِكَ اسْتَغْنَيْنا، وَبِنِعْمَتِكَ أَصْبَحْنا وَأَمْسَيْنا، ذُنُوبُنا بَيْنَ يَدَيْكَ، نَسْتَغْفِرُكَ اللّهُمَّ مِنْها وَنَتُوبُ إِلَيْكَ، تَتَحَبَّبُ إِلَيْنا بِالنِّعَم وَنُعارِضُكَ بِالذُّنُوبِ، خَيْرُكَ إِلَيْنا نازِلٌ وَشَرُّنا إِلَيْكَ صاعِدٌ، وَلَمْ يَزَلْ وَلايزالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ عَنّا بِعَمَلٍ قَبِيحٍ، فَلا يَمْنَعُكَ ذلِكَ مِنْ أَنْ تَحُوطَنا بِنِعَمِكَ وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنا بِآلائِكَ،**

(١) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧.

فَسُبْحانَـكَ ما أَحْلَمَـكَ وَأَعْظَمَـكَ وَأَكْرَمَـكَ مُبْدِئًا وَمُعِيدًا، تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ وَجَلَّ ثَناؤُكَ وَكَرُمَ صَنائِعُكَ وَفِعالُكَ»[١].

ونتحسَّسُ في هذا الدّعاء معنى الحبّ لله الذي يرتقي على ألم العذاب، فيذكر في الدعاء:

«إلهِي لَوْ قَرَنْتَنِي بِالأَصْفادِ، وَمَنَعْتَنِي سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الأَشْهادِ، وَدَلَلْتَ عَلى فَضائِحِي عُيُونَ العِبادِ، وَأَمَرْتَ بِي إِلى النّارِ، وَحُلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَبْرارِ، ماقَطَعْتُ رَجائِي مِنْكَ، وَما صَرَفْتُ تأْمِيلِي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلا خَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبِي .أَنا لا أَنْسى أَيادِيكَ عِنْدِي وَسَتْرَكَ عَلَيَّ فِي دارِ الدُّنْيا، سَيِّدِي أَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيا مِنْ قَلْبِي، وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ المُصْطَفى وَآلِهِ خِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ وَخاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَانْقُلْنِي إِلى دَرَّجَةِ التَوْبَةِ إِلَيْكَ، وَأَعِنِّي بِالبُكاءِ عَلى نَفْسِي، فَقَدْ أَفْنَيْتُ بِالتَّسْوِيفِ وَالآمالِ عُمْرِي»[٢].

هذه الفقرات من الدعاء ليست مجرّد كلمات نردّدها، وإنّما هي وسيلة من وسائل تطهيرنا من الداخل. لنتحدث مع الله بهذه اللغة!

نحتاج أيضًا إلى فترة نخلو فيها لأنفسنا، نتأمّل فيها ونتفكّر بعيدًا عن كل هذا الضجيج من حولنا، وحتّى نأخذ هامشًا فرديًا مع كلّ هذا الإحياء الجماعي الذي هو من الوسائل المحفّزة، ومن مظانّ شمول الرحمة لنا؛ لأنّ فردًا ضمن هذا الجماعة

(١) الكفعمي، المصباح، ص٥٩٢.

(٢) الكفعمي، م. ن.، ص٥٩٦.

إذا استحقّ الرحمة والفيض، فإنّ نزولها يشمل المحيط من حوله، وذلك من كرم الله.. مع ذلك، نحن في حاجة إلى فترة قصيرة نجلس فيها بكلّ تركيز مع الله لنفتح نفوسنا له، لكي نطهّرها وننظّفها، ثمّ نضع بين يدي الله اهتماماتنا وتطلّعاتنا للعام القادم ومشروع العمر الذي يجب أن نخطّط له؛ إذ لا يمكن أن يأتي الإنسان إلى هذه الحياة ويخرج منها من دون أن يعرف ماذا يريد من هذه الحياة. ما هو مشروعه الكبير في هذه الحياة؟ البعض ربّما يريد أن يكون لديه بيتٌ في قرية يقضي فيه حياته بعد تقاعده بعد العمل، والبعض قد يريد وظيفةً هامّة، والبعضُ يريد أن يتزوّج، أو أن ينهي تخصّصه، وما إلى ذلك.. هذا كلّه مطلوبٌ، وليلة القدر فرصة لكي نرفع طلباتنا إلى الكريم، ولكنّ هناك مشروعًا كبيرًا مرتبطًا بنفوسنا نحن، مشروعًا ربّما نجده ذخرًا لأنفسنا بعد أن نغادر الحياة، فنحن أسماءٌ لها حيّزها الوجودي الذي اختاره الله لنا، ونملك من خلاله تأثيرنا وفعاليّتنا في حركة البشريّة في مدى العالم.. مع كلّ تلك الطلبات، لنضع الآخرة في كلّ مشروعٍ نريدُه، حتى يتطهّر المشروع في النيّة والأهداف والامتداد في الحياة، ولا يكون مجرّد عملٍ يدرّ مالًا على الإنسان، أو موقعًا متقدّمًا في الإدارة أو السياسة أو الاجتماع أوما إلى ذلك، ثمّ ينقطع أثره في لحظة انقطاع النفس، بل قد يكون الملفّ المحمَّلُ من خلاله للآخرة فيه كلّ السوء في المصير ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾(١).

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ٨٨-٨٩.

تساؤلات حول ليلة القدر

قد يسأل أحدُنا سؤالًا:

متى هي هذه الليلة؟ أيُّ ليلة من ليالي شهر رمضان هي ليلة القدر؟

هناك رواياتٌ عديدة في تحديدها، وهناك اختلافٌ بين المذاهب الإسلامية في تعيينها تبعًا لاختلاف الروايات لديهم. في الروايات عندنا تجد الليلة الحادية والعشرين، والثالثة والعشرين، وربّما غيرهما أيضًا، ولذلك استقرّ الرأي عند المسلمين الشيعة على أنّها ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان، وعند المسلمين السُّنة هي ليلة السابع والعشرين، لكنّ هذا الإثبات الروائي لا ينفي بالمطلق إمكانية أن تكون ليلة القدر في زمانٍ آخر في شهر رمضان، ولذلك ينبغي أن يدفعنا ذلك إلى أن نحرص على إحياء كلّ ليلة، ولا سيّما العشر الأواخر.

ولعلّنا نقول: لعل الحكمة من إخفائها في النص القرآني لأجل خلق هذا الحافز، فإنّ من شأن الإحساس بأهمّيتها المصيرية أن يحفّز الإنسان على أن يقوم بالإحياء في الليالي المحتملة على كلّ الاحتمالات. ليس بالضرورة أن نقوم بالإحياء على الطريقة الجماعية، لكن ما المانع من أن نقوم بذلك فرديًا، بحيث يتمّ إحياء السحر أو ساعة منه على الأقل، فيدعو الإنسان بدعاءٍ تستمرّ معه تلك الروحية إلى نهاية الشّهر المبارك؟! لنقتدِ برسول الله ﷺ، فقد روي

أنّه «كان رسول الله ﷺ إذا كان العشر الأواخر اعتكف في المسجد»[(١)]؛ بل في بعض الروايات عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام يقول: «**كانت بدر في شهر رمضان فلم يعتكف رسول الله ﷺ فلمّا أن كان من قابل**[(٢)] **اعتكف عشرين، عشرًا لِعامِهِ وعشرًا قضاءً لما فاته**»[(٣)].

كثيرون منّا يتصرّفون أنّه عندما تنتهي ليلة القدر المرسومة، كأنّهم يغلقون ملفّ شهر رمضان نهائيًا، وكأنّ اللّيالي الأخيرة ليست من الشّهر الذي يمكن أن تنزل فيه الرحمة التي لم تنزل في سابقات الليالي والأيام.. بل ربّما تزلُّ قدمُ الإنسان في نهاية الشهر فيقضي على كلّ رصيده المتقدّم، وهنا أهمّية سؤال الله أن يرزقنا حُسن العاقبة، وأن نحرص على أن تكون خواتيم أعمالنا وحياتنا خيرًا. صحيحٌ أنّ الإنسان يشعر نفسيًّا بأنّ العدّ التنازلي للشهر يُسرع بعد ليلة القدر المرسومة، انطلاقًا من كونها تمثّل الذروة في هذا المجال، ولكنَّ الواقع أنّ الليالي الباقية لا يدري الإنسان ما الذي ادّخره الله تعالى فيها من رحمة ومغفرة وفيضٍ.. بل لعلّ الله تعالى يُمضي في تلك الليلة المرسومة ما طلبه العبدُ، ولكنّه يعلّقه على أن يستمرّ على نيّته الصادقة في الثبات على القرب من الله، والاتصال به، والطاعة له، وهذه النية لا بدّ من أن تُترجمَ عمليًّا..

---

(١) الكليني، الكافي، ج٤، ص ١٧٥، باب الاعتكاف، ح ١.

(٢) أي شهر رمضان من السنة التالية.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص ١٨٤، باب الاعتكاف، ح ٢٠٨٨.

لنُخلص في هذه الليلة نيّاتنا لله، وهذا الإخلاص من قبلنا هو الذي يجعل أسماءنا في هذه الليلة في السُّعداء، وأرواحنا مع الشّهداء، وإحساننا في عليّين، وإساءاتنا مغفورة، ويجعلنا الله من الذين يواكب الله خططهم وبرامجهم وأهدافهم واستراتيجياتهم وآليات عملهم حتى يهيّئ لهم الظروف المناسبة؛ لأنّ الله هو المهيمن على الأمر كلّه، وكلّ شيء قائمٌ به سبحانه وتعالى.

***

ثلاثة أمور نحتاج إليها قبل ليلة القدر ومعها وبعدها[1]

عندما ينتهي إحياء الليلة الثالثة والعشرين ـ والتي تعدّ في مدرسة المنتمين لأهل البيت عليهم السلام ليلة القدر ـ، يشعر الكثيرون بأنّ حملًا كبيرًا قد بدأ ينزل من على ظهورهم، ويتلمّس الجسدُ أن يتحرّر من قيود العبادة في النهار، وتعودُ البرمجة للعادات اليومية إلى سابق عهدها، سواء من حيثُ ما يعتاده الإنسان في نهاره، أو في ما يرتبط بالنّوم والراحة في الليل وما إلى ذلك.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الجانب النفسي ليس أمرًا غير طبيعي، فإنّ الإنسان مفطورٌ على حبّ الراحة، وإنّه ليس من نقصِ الإيمان أن يُسرَّ الإنسانُ بذلك إذا لم يكن عن استخفافٍ بالعبادة أو بمن تتوجّه إليه، كيفَ؟ وقد ورد في الحديث: «**للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربّه**»[2]، حيث قد نستوحي من ذلك اعتراف الإسلام بطبيعة ما تعيشه النفس من لذّاتها وشهواتها، بشرط أن تكون محلّ رضى الله تعالى.

---

(١) محاضرة ألقيت بتاريخ ١٥ آذار/ مايو ٢٠٢٠م

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٥١.

بكلّ الأحوال، قد نحتاج إلى التفكّر في ثلاثة أمور أساسيّة ينبغي الاهتمام بها في ليلة القدر وقبلها وبعدها:

١ ـ التخفّف من الأثقال

نحتاج في هذه الليلة إلى أن نتخفَّف من بعض المثقِلات التي تعيقُ حصولنا على ما نرغبُ فيه ونصبو إليه. كلّنا نريد أن يغفر الله سبحانه وتعالى لنا، الإنسان منّا الذي يحصل على مغفرة من الله عزّ وجلّ في هذه الليلة يحصل على الشيء الذي ليس بعده وفوقه شيء؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قَبِلَه في المغفور لهم ذنوبهم، وبالتالي يمكن له أن يبدأ العمل من جديد، وينطلق إلى حياته بصفحة بيضاء، ليملأها بالطاقة الروحيّة التي حصل عليها من خلال ذلك.

ولعلّنا نستوحي ذلك من آيةٍ لافتة في القرآن الكريم يتحدّث الله تعالى فيها عن العلاقة بين أمرين؛ بين المغفرة التي يريد الإنسانُ أن يحصل عليها ومغفرتنا نحن للناس أخطاءهم معنا، وكأنّ الله سبحانه يريد أن يقول لنا: أيّها الناس، إنّ هناك مُثْقِلاتٍ لأدعيتكم، وذلك أنّه قد يكون في قلوبكم الكثير من الطاقة السلبيّة التي تمنع الدعاء من الصّعود إلى السَّماء، وهي ـ في الحقيقة ـ تمنعنا من أن نحسَّ بحقيقة الدّعاء؛ لأنّ لدينا الكثير من «الفايروسات» الموجودة في داخلنا، في قلوبنا ومشاعرنا وأفكارنا. يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾(١)، كأنّه تعالى يريد أن يربط

(١) سورة النور، الآية٢٢

بين عفونا عن النّاس وصفحنا عنهم من جهة ومغفرة الله لنا من جهة ثانية. والصَّفحُ بمعنى إزالة كل ملفّ سلبي في نفوسنا مرتبط بهم، ربّما بسبب تجربة سيّئة مررنا بها معهم، ربّما نكون قد ظُلمنا من قبل الآخرين في حقٍّ لنا، أو بعضهم أساء الكلام معنا وأورثنا جروحًا عميقة في مشاعرنا، أو بعضهم بغى علينا أو آذى بعض من يتعلّق بنا، أو بعضهم شوّه صورتنا أمام الناس، اغتابنا أو بهَتنا وكذب علينا، وما إلى ذلك..

ربّما نحتاج في ليلة القدر إلى أن نتخفّف من كلّ ذلك، وخصوصا بين الأقرباء الذين قد يتباعدون نتيجة نزاعٍ على ميراثٍ، أو بسبب نميمةٍ وقعت بينهم، أو فهمٍ خاطئٍ لبعض مواقفهم، أو نتيجة قطيعةٍ بدأها بعضهم فامتدّت قطيعةً بين الأجيال، وهكذا.. أن لا نحمل في هذه اللَّيلة حقدًا على أحدٍ، أو بغضاءً تجاه قريبٍ، أو عداوة لمؤمن أو مؤمنةٍ.

فإذا لم نتخفّف من ذلك وطلبنا المغفرة من الله، سينادينا المنادي: أينَ أنتم من المغفرة للنّاس؟ لماذا لا تعملون على وَصْلِ ما انقطع، وتجاوُزِ ما مضى، ومَحْوِ آثار ما سلفَ من كلماتٍ ومواقفَ وأحداثٍ؟ إذا كنتم تريدون من الله أن يغفر لكم فابدأوا أنتم أوّلًا! أظهروا أنّكم تحبّون العفو والمغفرة ليكون دعاؤكم بطلبها صادقًا بحبّ هذه القيمة، وليس أنّكم تحبّون أنفسكم وتحبسونها في أنانيّاتكم، بحيث يكون الحال كذاك الأعرابيّ الذي كان في الصّلاة وراء النّبي ﷺ ـ كما في الرواية ـ فقال: «اللهمّ ارحمْني ومحمَّدًا ولا ترحَمْ معنا أحدًا، فلمّا سلّم النّبي ﷺ قال للأعرابيّ: **لقد حجّرتَ واسعًا**

ـ يريدُ رحمة الله ـ»[1]، بمعنى أنّه ضيّقَ بدعائه ما هو واسعٌ، وهو رحمة الله تعالى. وهذا الحديث إنّما ذكرناه شاهدًا على أنّنا أحيانًا لا نلتفتُ إلى أنّنا لا نتمنّى الخير للنّاس، ونحبُّ أن الله تعالى لنا وحدنا دون سائر العالَمين، ولعلّ عدم العفو والصفح عن الناس يُعدّ مؤشّرًا على هذه الذهنيّة؛ والله أعلم.

ويحضرنا هنا ـ في مسألة العلاقة مع النّاس وصلتها بالله تعالى ـ ما ورد عن النبي ﷺ يقول: «**ألا إنّ في التباغض الحالقة، لا أعني حالقة الشّعر ولكن حالقة الدِّين**»[2]، وقد نفهم ذلك على أساس أنّ هذا التباغض يُثقل النفس، وقد يكون الإنسانُ مصلّيًا صائمًا، ولكنَّ البغضاء تثقل صلاته فلا ترتفع فوق سقف الغرفة التي يصلّي فيها!.

الأمر قد يشبه الصَّحْن اللّاقط للقنوات المرئيّة والمسموعة، حيثُ كلّما كان خاليًا من الشوائب كان تلقّيه أفضل.. المرايا العاكسة كلما كانت سليمةً كان عكسها للأنوار أكثر صفاءً ونقاءً..

كلّما ابتعد الإنسانُ عن الأنانيّة كان إلى العبوديّة أقرب، وكلّما كان الإنسان أقربَ لتحسّس معنى العبوديّة كان أدنى من الله، وهذا أمرٌ أساسيّ ربّما يعينُنا على الخشوع في الدّعاء، وبالتالي يكون في محلّ الإجابة بإذن الله.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج٧، ص٧٧.

(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص٣٤٦.

٢ ـ روحيّة الهداية

ورد عن بعض العلماء أنّه في ليلة القدر في أحد الأعوام يقول: احترتُ في مَن أدعو له في هذه الليلة! هل أدعو لوالديَّ، فالتفتُّ إلى أنّ والديّ مؤمنان، وبالتالي هما يتعلّقان برحمة الله؛ لأنّهما مؤمنان، وهما من المُحْيين لهذه الليلة. أيضًا المؤمنون الذين سيدعو لهم كذلك. ثمّ يقول إنّه وجد أنّ الأفضل أن يدعو في هذه الليلة للضالّين بالهداية، وللكافرين بالإيمان.. هؤلاء الذين لا يعرفون الله، ولا يؤمنون به.

هذا في الحقيقة خُلقٌ نبويّ؛ لأنّ روحيّة النّبي ﷺ في حبّ الخير للآخر لا تقتصر على مَنْ أسلم وآمن، وإنّما يؤذي النّبي ﷺ أن يرى الآخرين لا يرون النّور الذي جاء به، ولا يستمعون الخير الذي يقرأه عليهم، ولا يتلمّسون مواقع الهداية التي تدلّهم على الطريق في حياتهم الدنيا، وعلى فلاحهم في الآخرة. ولذلك ورد في الرواية أنّه لمّا رماه المشركون بالحجارة، وهو يدعوهم إلى الإسلام، قال ـ وهو يمسح الدّم عن وجهه ـ: «**اللهمَّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون**»[١]، وفي روايةٍ أنّه قيلَ له: ألا تدعو عليهم؟ قال: «**اللهمَّ اهدِ قومي**»[٢].

هل نملك نحن هذه الروحية، بحيث إنّنا عندما يختلفُ بعضنا مع بعض في المجتمع الإيماني على الأقل، ويرى بعضنا نفسه على حقّ والآخر على باطلٍ، في فكرة عقديّة أو

---

(١) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج٦، ص١٧٩.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص ٩٦.

شرعية أو تاريخية، أو في سلوكٍ معيّن، أو كلمةٍ محدّدة أو موقفٍ، هل ندعو له أم ندعو عليه؟ هل أجدُ في نفسي حبّ الخير له أم أحبُّ لو أنّه لا يهتدي أبدًا؟!

لو بحثنا في طريقة إدارة اختلافاتنا، ولا سيما على وسائل التواصل الاجتماعي هذه الأيّام، لوجدنا أنّ كثيرًا منّا يتمنّى أن لا يهتدي أهل المذهب الآخر، ولا من يتبعون المرجع الفلاني أو القائد الفلاني، لكي يذهبوا إلى جهنّم! وينعكس ذلك قَطْعًا لكلّ خطوط المودّة بيننا وبينهم.. هنا كيفَ سأطلبُ من الله تعالى أن ينقذني من جهنّم ويدخلني جنّة ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1]، في الوقت الذي لا أحملُ فيه روحيّة الخير للآخر أو حبّ الهداية له والإيمان؟!

هذه الروحيّة لا تتواءم مع «الشيفرة» أو كلمة السرّ التي تفتح أبواب الرحمة الإلهيّة، والمغفرة الربّانية، ونحتاج إلى أن تحمل نفوسُنا روحيّة يحبّها الله تعالى. وإذا دقّقنا في بعض الروايات وما تعكسه من جانبٍ أخلاقيّ، سنرى أنّ القيمة الأخلاقيّة تدور مدار أن يكون الآخر موجودًا في بالك عندما تريد أن تطلق الكلمة، أو تقفَ الموقف؛ فإذا كان موجودًا في بالك فأنت أخلاقيّ، وإذا لم يكن فأنت تعيشُ الأنانيّة، وقد تتحرّك مواقفك بوحي الانفعال. نلمح ذلك من حديث الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وحقُّ مَنْ ساءَكَ فأن تعفو عنهُ، وإن علمتَ أنّ العفوَ يُضرُّ انتصرتَ**»[2]؛ فأنت لا

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٧١، ص٩.

تنتصر لذاتك لتردّ اعتبارها، بل لأجل الآخر، فنظرُك إليه، واهتمامُك به!. هذا عمقُ الموقف الأخلاقيّ.

٣ ـ العمل ما بعد ليلة القدر

لو قدّمنا هنا مثالًا، وهو أن يأتي زبونٌ إلى دكّان تاجرٍ ما، فيبيعه ثمّ يقفلُ دكّانه في وجه الزبائن الآخرين. كيف نقوّم ذلك؟

نحن أحيانًا نفعل ما يشبه ذلك، عندما نحيي ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان، فما إن تنتهي هذه اللَّيلة حتّى نقفلَ الزمن بعدها، وكأن لم تَعُدْ بيننا وبين الأيام الباقية من الشّهر أيُّ علاقة. بمعزلٍ عن مدى احتمال أن تكون إحدى الليالي الباقية هي ليلة القدر، فإنّ احتمال أن نكون ممّن يستحقّ مغفرة الله له تستمرّ إلى آخر لحظة من شهر رمضان، بل إلى يوم العيد أيضًا؛ لأنّ أبواب الجنة مفتّحة، وأبواب النيران مغلّقة.. وبالتالي فإذا انتهت ليلة القدر وطلع الفجر، فكيف نعرفُ أنّ الله تعالى قد غفَرَ لنا؟ ألا نحتاج إلى أن نُظْهر صدق النّية أنّ المصير بين يدي الله تعالى يهمّنا في كلّ لحظة، حتّى نهاية العمر؟ كيف نعلنُ لله تعالى التوبة في ليلة القدر ولا نصحّح مسارنا بعدها؟

فعلى سبيل المثال، لو شعر أحدنا بروحيّة دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في «طلب التوبة»، فما المانع من أن يردّده في كلّ ليلة من الليالي الباقية إلى آخر الشّهر؟ ما هو المانع من

أن يكرّر الإنسانُ دعاء «مكارم الأخلاق»؟ وهكذا بالنسبة إلى سائر الأدعية المأثورة، التي ملؤها العشق لله، وهي تشكّل ثقافةً في معرفة العقيدة والقيم الأخلاقية والمنهج الروحي وما إلى ذلك.

لعلّ الله تعالى يرى العزمَ على التغيير في عمق نفوسنا، فيكون هذا سببًا للمغفرة، وسببًا لأن تتمَّ الفيوضات الإلهيّة علينا في الأيّام القادمة.

نحن في حاجةٍ إلى رحمة الله تعالى في كلّ لحظة، والله مطّلعٌ على قلوبنا ويعلمُ أنّنا صادقونَ أو كاذبون في نيّتنا في أن نستقيم على ما أمر به ونهى عنه، وأن نصحّح مسارنا وأحوالنا في مستقبل حياتنا؛ والله تعالى هو اللطيف الذي نسأله لطفه وإن كنّا غير مستحقّين لعطائه، وهو الذي يفيضُ عطاءه على من يسأله وعلى من لا يسأله، وعلى المؤمنين به والجاحدين بربوبيّته؛ وهو الواسع العليم.

***

الفهرس

المقدّمة ٥

لهذه الأسباب الستة جعل الدعاء ٧

أوّلًا: لماذا يجب أن ندعو؟ ٨

١ـ العبودية ٨

٢ـ الارتقاء الروحي ٩

٣ـ التصريف النفسي ١١

٤ـ الدعاء ثقافة ١١

٥ ـ طلب الحاجات ١٢

٦ ـ التواصل مع الله ١٣

ثانيًا: ما هي شروط الدعاء؟ ١٤

الشرط الأول: التطهير الداخلي ١٤

الشرط الثاني: العمل ١٥

ثالثًا: بماذا ندعو؟ ١٨
أ ـ الأدعية القرآنية ١٨
ب ـ الأدعية المأثورة ١٩
ج ـ الأدعية الشخصيّة ١٩

أدعية القرآن وأهميّتها ٢١
لماذا الدعاء مهم؟ ٢١
الصلة مع الله بين الدعاء والصلاة ٢٢
لماذا الدعاء مهم؟ ٢٣
الدعاء الأول: ٢٤
الدعاء الثاني: ٢٧
الدعاء الثالث: ٣٠
ثمرة هذه الدعوات: ٣٣

ثلاثة أبعاد رائعة في مدرسة الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام ٣٥
ما الذي يدفع الإنسان للمعصية؟ ٣٦
ثلاثيّة إيمانيّة ٣٩
مدرسة الحبّ ٤٠
مدرسة الشُّكر ٤٣
مدرسة الحياة ٤٥
خاتمة المطاف ٤٧

في ليلة القدر أيَّ ملفات نفتحها بين يدي الله؟ ٥١
ميّزات ليلة القدر ٥٢
١ـ ليلة نزول القرآن ٥٢
٢ ـ خير من ألف شهر ٥٤
٣ ـ ليلة التقدير....................................٥٥
٤ـ ليلة السلام ٥٨
ما هو المطلوب في هذه الليلة؟ ٥٩

تساؤلات حول ليلة القدر ٦٤

ثلاثة أمور نحتاج إليها قبل ليلة القدر ومعها وبعدها ...٦٧
١ ـ التخفّف من الأثقال.........................٦٨
٢ ـ روحيّة الهداية................................٧١
٣ ـ العمل ما بعد ليلة القدر ٧٣